Ahmed Salah Al Mahdi

رواية

البرديات الإغريقية

مبعوث مورفيوس

أحمد صلاح المهدي

ساحر الكتب

البرديات الإغريقية

(مبعوث مورفيوس)

تأليف

أحمد صلاح المهدي

2019

سما
للنشر والتوزيع

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

البرديات الإغريقية

إهداء

إلى روح ابنة خالي (نورهان أحمد) ارقدي في سلام يا طفلتي، عسى أن ألقاكِ في عالمٍ آخر.

إلى روح الكاتب (أحمد خالد توفيق) وداعًا أيها الغريب، ستظل حيًا في ذاكرتي، وسيظل الطفل الصغير بداخلي ينظر إليك بكل حبٍ وعرفانٍ وتقدير.

إهداء

إلى أبي وأمي،

وإلى الصغيرتين (فرح وصفية).

شكرًا

لإخوتي وأصدقائي:

محمد صلاح، جهاد صلاح، محمود صلاح، ريهام سيد، محرم فؤاد، معتز حسانين، حسام نادر، مصطفى عمار، عبد الرحمن سمير، أسماء عوض، إكرام الشريف، لينا الدسوقي، عمار محمود، عمار جمال، محمد محمود، أحمد نادر، محمد حمدي، علي شاتو، عبد الباسط كمال، حمزة ماهر، محمد عبد الله، علي مصطفى، محمد عثمان، عبد الله عمر، محمود سعد، محمد صلاح شديد، إيناس الدسوقي، فريدة الجوهري، نورا أشرف، سمر محمد، إبراهيم السعيد، أحمد أبو سيف، مريم لطفي، ولاء هريدي، ميار محمد، مُرية مجدي، دنيا حسين، مريم عرفة، عمر خالد، مصطفى سراج، حمدي السيد، جبريل محمد، حسان أحمد شكاط، أسامة أبو ترابة، جلال غطاس، عامر الدوسري، محمد علي، أحمد السيد أبو مكي، محمد محيي طلبة.

شكر خاص للنقاد

أ. خالد جودة

د. حسام الزمبيلي

د. عماد الدين عيشة

أ. محمد نجيب مطر

«أنا (هرمس) المثلَّث بالحِكمة، عملتُ هذه الآية جِهارًا وحجبتُها بحِكمتي لِئلا يَصِل إليها إلّا حكيمٌ مثلي: من أراد أن يَعلم سرائر الخليقة وصَنْعة الطبيعة فَلْيَنْظُر تحت رِجلَيّ».

- (بلياس) الحكيم، كتاب سر الخليقة وصنعة الطبيعة.

الفصل الأول

أطلال الماضي

ارتفع صوت آلات الحفر العملاقة بضجيجٍ يصم الآذان، وتصاعدت سحب الغبار لتغلف كل شيءٍ بضبابها الخانق، وازدحم المكان بالباحثين والعلماء المختصين وهم يراقبون العمال في زيهم المميز وخوذاتهم البرتقالية، يتحركون بسرعةٍ وخفة ما بين مبانٍ ضئيلة متهدمة استخرجت من أسفل الرمال بالقرب من مدينة الأشمونين بالمنيا بعد فترةٍ طويلةٍ من التنقيب عنها؛ يمسك بعضهم بآلاتٍ دقيقة، لإزالة الرمال بحرص، والكشف عن كل حفرٍ ونقش، بأنامل خبيرةٍ تعرف ما تفعله.

كان المكان يموج بالحماس والإثارة، وتدفق في العروق كمٌّ غير مسبوق من الأدرينالين؛ وأحد هؤلاء المتحمسين كان الدكتور (مصطفى) عالمٌ مصري في أواخر العقد الرابع من عمره، متوسط الطول وممتلئ بعض الشيء، يرتدي نظارة طبية ويضع على رأسه خوذة بيضاء، وهو العالم المسؤول عن هذا الكشف، كان يمسك في يده خريطة يتفحصها بدقة وهو يعدل من وضع النظارة على أنفه

وقد التمعت عيناه بحماسٍ وهو يفكر في الإنجاز الذي سينسب إليه بلا شـــك، فهو يقف بين أطلال مدينة خمون الفرعونية مركز عبادة الإله (تحوت) إله الحكمة والسحر والخيمياء في الديانة المصرية القديمة، ومن حوله تناثرت مبانٍ ضئيلة متهدمة، كان يدرك أن الجزء الأكبر من المدينة غارقٌ أســـفل الرمال، ولكنه يبحث عن المعبد الرئيسي لعبادة (تحوت) والذي عرف بأنه مركز المعارف والعلوم في الزمن الفرعوني القديم، فكم من الأسرار يمكن اكتشافها إذا تم الوصول إليه.

وبينما هو غارق في أفكاره، قاطعه أحد العمال قائلًا:

"يبدو أننا وصلنا إلى شيءٍ يا دكتور (مصطفى)!"

جعلـــت العبارة (مصطفى) يفيق من شـــروده وينتبه إلى اختفاء صوت الضجيج المعتاد بينما العمال متحلقون حول شيءٍ ما، فأسرع إليهم بخطواتٍ واســـعة ليجدهم واقفين أمام مبنى أزيحت الرمال من على جزءٍ منه، ليظهر بابٌ صخريٌّ بينما باقي المبني لا يزال غارقًا في الرمال.

كان الباب مرســـومًا عليه الإله (تحوت) في صورة رجلٍ برأس ابن منجل كعادة المصريين القدماء في تخيله، ومقابله نحتت (ماعت) ربة الحق والعدل والنظام في الكون، والمسؤولة عن حساب الميت بحسب معتقداتهم في هيئة أنثى مجنحة تفرد جناحيها.

سأله أحد المتحلقين حوله:

"أهذا هو معبد (تحوت)؟"

هز (مصطفى) رأسه وقال:

"لا أعتقد ذلك، فمن هيئته الخارجية يبدو أنه مبنى صغير، أصغر من أن يكون معبدًا، من المرجـــح أن هذا الباب يؤدي إلى مقبرة لأحد الملوك أو النبلاء في مصر القديمة."

وهنا قاطعه صوت غريب مع سطوع ضوء فلاش شديد، فنظر خلفه فوجد بعض الرجال يلتقطون صورًا، فشعر بالضيق وحدث نفسه قائلًا:

"تبًّـــا للصحافة! لم نبدأ بالفعل وها هم يتجمعون مثل الذباب على ضوء المصباح."

اقتـــرب أحد حاملي الكاميرات منه؛ شـــاب صغير في أوائل العقد الثالث من العمر، طويل القامة، نحيف الجســـد، ذو شعرٍ أسود ناعم ينسدل بلا اكتراث على جبهته، وقال معرفًا بنفسه:

"أنا باسم، صحفي من جريدة (على مدار الساعة) ونحن متحمسون للغاية للكتابة عن اكتشافك العظيم".

أجابه (مصطفى) بضيقٍ واضح لم يبذل أي مجهودٍ لإخفائه:

"حســـنًا، نحن منهمكون الآن في عملنا ولا نستطيع مقاطعته من أجل سبقك الصحفي، ربما بعدما أنتهي من عملي ستحصل على بعض التصريحات."

فـــي تلك الأثناء كان العمال يبذلون قصارى جهدهم لإزالة ما تبقى من رمال حول الباب الصخري كـــي يتمكنوا من فتحه، كان الأمر يتم

ببطءٍ ودقةٍ وحرصٍ للمحافظة على الهيئة الأصلية للنقوش، مر الوقت بطيئًا ثقيلًا، احترقت فيه أعصاب الواقفين من الإثارة والتحفز، والبعض يتحرك هنا وهناك مجريًا بعض الاتصالات الهاتفية، و(باسم) يلتقط بعض الصور ويأخذ بعض الكلمات والتصريحات من المختصين الآخرين ويدونها في مذكرةٍ ورقيةٍ صغيرة معه، أما (مصطفى) فلم يفارق الباب الصخري وهو ينظر ناحيته بترقبٍ حتى استطاع العمال فتح الباب الصخري، وظهر أمامهم ممرٌّ صخريٌّ مظلم.

خيم صمتٌ عميق على المكان ولم يعد من صوتٍ سوى أنفاس الحاضرين الثقيلة ودقات قلوبهم المتسارعة، فبدا كأن الزمن ذاته قد توقف عن الحركة، بعد ذلك تقدم مجموعة من العمال يرتدون أقنعة الغاز ويحملون في أيديهم أجهزة خاصة، وأحدهم يمسك في يده كشافًا كهربائيًّا صغيرًا، ثم ولجوا عبر الباب الصخري المفتوح والجميع ينتظرونهم بالخارج حتى تأكدوا من أن دخول المقبرة آمن؛ فأشاروا للباحثين بالتقدم، كان أول من بادر بالحركة هو (د. مصطفى) الذي تقدم بحماسٍ عبر البوابة الصخرية ممسكًا بكشافٍ كهربائيٍّ صغير، ليسير في الممر الصخري المظلم ملقيًا بضوء كشافه على الجدران التي تحمل نقوشًا وزخرفات فرعونية عديدة وهو يفكر في الوقت الذي سيقضيه في تحليلها، تبعه بعض الباحثين الآخرين وهم يحملون الكشافات بدورهم.

بعد فتـــرةٍ قصيرةٍ من الســـير في الممر الصخـــري، وصلوا إلى حجرةٍ ضيقة مظلمة؛ لا ينيرها إلا المصابيح الكهربائية الصغيرة في أيديهم، وقد تزينت جدران الغرفة الصخرية بدورها بالرموز والنقوش الفرعونية، التفت (مصطفى) حوله والحيرة مرتسمة على ملامحه كأن ألف فكرة تدور في عقله، فسأله أحد الباحثين قاطعًا حبل أفكاره:

"الأمر غريب أليس كذلك؟"

صمت (مصطفى) قليلًا كأنه يستجمع أفكاره ثم قال:

"لقد ظننت أنها ســـتكون مقبرة أحد النبلاء، ولكنها تختلف تمامًا عما اعتدت عليه!"

سأل آخر يبدو أصغر سنًّا، وأقل خبرة:

"مختلفة كيف؟"

تنهد (مصطفى) ثم قال:

"الفقراء لا يدفنون في مثل تلـــك الحجرات، أما النبلاء الذين تبنى لهم مقابر خاصة فإنها تكون متســـعة، وتحتوي على التابوت بداخله المومياء، كما يوجـــد بها حلي ذهبية ومجوهرات وأطعمة وأســـلحة وأشياء عديدة كي تصحبه في رحلته إلى العالم الآخر؛ أما هذه الحجرة فهي أصغـــر من أن تكون مقبرة، كما أنهـــا لا تحتوي على تابوتٍ أو مومياء أو حتى الأواني الكانوبية!"

فسأله الشاب الصغير وهو يضيق عينيه محاولًا أن يبدو أكثر عمقًا:

"هل تظن أن نباشي القبور قد سبقونا إلى هنا؟"

هز (مصطفى) رأسه نفيًا، وهو يقول:

"لا أعتقد هذا، فالمقبرة تشي بأنها لم تفتح من قبل، كما أن نباشي القبور قد يسرقون الحلي، ولكنهم لا يسرقون الأواني الكانوبية، ربما لا تكون مقبرة كما ظننت، حينها يكون السؤال، ما هي إذن؟"

في تلك اللحظة لمع صوت فلاش الكاميرا مع صوت (كليك) فنظر (مصطفى) خلفه ليجد (باسم) يتطلع حوله بلا مبالاة، فقال له بغيظ:

"من سمح لك بالدخول إلى هنا؟"

هز (باسم) كتفيه دون أن يجيب، وقبل أن يقول (مصطفى) شيئًا آخر، جاءهما صوت أحد الباحثين الآخرين متسائلًا وهو يشير بمصباحه إلى أقصى طرف في الغرفة والذي يصل إليه ضوء الكشافات الباهت بالكاد:

"ما هذا الصندوق؟"

صوب (مصطفى) كشافه في الاتجاه الذي أشار إليه العالم، ليسقط على صندوقٍ أسود قاتم، بدا في سواده كجزءٍ من ظلمة الغرفة فلم ينتبه إليه أحد على الفور، اقترب منه (مصطفى) بخطوتين مسرعتين، وبدأ يزيل الأتربة من فوق الصندوق بحرصٍ مستخدمًا فرشاة صغيرة، ثم فتح الصندوق ببطءٍ لتقابله مفاجأة أخرى؛ حيث وقع نظره على ساعةٍ رملية ذات إطارٍ من عقيقٍ أسود، حُفر عليها نقوش غريبة لا تشبه

الرموز الفرعونية ويبرز من جانبيها جناحان مضمومان محفوران من العقيق الأســـود ذاته، والرمال بداخل الحجرتين الزجاجيتين ذات لونٍ أحمر غريب، وكانت الساعة مربوطة بخيطٍ من الكتان، فعقد حاجبيه في حيرةٍ وهو يقول:

"غريبٌ حقًّا؟"

فقال له الباحث الشاب:

"ما هو الغريب؟"

أشار (مصطفى) ناحية الساعة، وهو يقول:

"الســـاعة الرملية لم تُخترع قبل القرن الثامن الميلادي، وجودها داخل مقبرة فرعونية هو أمر مستحيل!"

غمغم الشاب وهو يحاول تفسير الأمر:

"ربما تكون المقبرة حديثة، وليست بهذا القدم الذي نعتقده!"

هز (مصطفى) رأسه نافيًا، وهو يقول:

"مســـتحيل؛ لقد حددنا عُمر المنطقة بمنتهى الدقة، وكل الأطلال التي اكتشفناها تتفق مع هذا التقدير... إلا هذه الساعة!"

ناول (مصطفى) المصباح للباحث، ومد يده ليخرج الساعة الرملية من الصندوق ببطءٍ وهو يمســـكها من الخيط الكتاني بحرصٍ خوفًا من أن يتمزق في يده بعد مرور كل هذه الســـنوات، ولكن الخيط كان

قويًّا ومتماسكًا بشـــكلٍ غريب، أما (باسم) فقد استولت عليه غريزته الصحفية وأخذ يلتقط عدة صور في حماس، وهو يفكر في هذا السبق الصحفي المثير؛ لكن (مصطفى) لم ينتبه إليه وهو يشعر بشيءٍ غريب عندما أمسك بها، كأن الهواء من حوله يزداد ثقلًا ويصبح خانقًا بشكلٍ لا يطاق، فأعاد الساعة الرملية إلى الصندوق وأغلقه ببطءٍ بعدما انتابته حيرة أكبر من سابقتها، سيحتاج الأمر إلى المزيد من البحث والدراسة كي يصل إلى حل هذا اللغز.

***

عاد (باسم) إلى شقته بالقاهرة وهو يشعر بإرهاقٍ شديد بعد رحلته ذهابًا إلى المنيا ثم العودة إلى القاهرة مجددًا، راودته في تلك اللحظة رغبة شديدة في التوجه إلى غرفة نومه وإلقاء جسده على فراشه الناعم ليحصل على قســـطٍ وافرٍ من النوم، إلا أنه لم يستسلم لهذا الإحساس، بل ألقى حقيبة سفره جانبًا، وأســـرع ناحية جهاز الكمبيوتر وشغَّله ليصدر هديره المكتوم المحبب، الذي يشعر معه بالألفة، فهو الصوت الوحيد الذي يؤنسه في وحدته منذ وفاة أبيه وأمه، نفض عن عقله تلك الأفكار وهو يوصل الكاميرا بالجهاز مســـتخدمًا كابل خاص، ثم نقل كل الصور التي التقطها في تلك الرحلـــة إلى الكمبيوتر، وعلى الفور شرع في تنظيم الصور وترتيبها، وهو يفكر في التقرير الصحفي الذي سيعده، ويقدمه للجريدة.

يعمل (باسم) محررًا بالقسم الإلكتروني بواحدةٍ من أكبر الجرائد الرقميـــة والمطبوعة في مصر، إلا أن طموحه هو أن يُنشـــر واحدٌ من تحقيقاته الصحفية بالجريدة المطبوعة التي تُنشـــر بعدة لغات حول العالم، لذا بمجرد أن سمع بشأن اكتشاف أطلال مدينة خمون بالقرب من قرية الأشـــمونين بالمنيا لم يضع وقتًا، وأســـرع مسافرًا على أول قطارٍ متجه للصعيد من أجل اللحاق بهذا السبق الصحفي.

عرض الصور بشـــكلٍ متتابع أمام عينيه على شاشة الكمبيوتر كي يختـــار أفضلها من أجل تقريره الصحفي، حتـــى توقف أمام صورة الســـاعة الرملية التي عُثر عليها في تلك الحجرة الغريبة؛ لم يكن لديه خبرة كافية بالأشـــياء الأثرية، ولكن حديث (د. مصطفى) عن اختراع الســـاعة الرملية، وأنه يعود إلى عدة قرون بعد الميلاد، قد أثار غريزة الصحفي بداخله، وأراد أن يبدأ البحث عـــن الأمر في الإنترنت، ولكن جســـده المنهك صرخ اعتراضًا، بعد رحلته المرهقة ذهابًا وإيابًا عبر القطار في اليوم ذاته، فنظر إلى ســـاعته وهو يتثاءب فوجدها قاربت الفجر، فتمطى قائلًا:

"يمكنني الآن الحصول على قسطٍ من النوم."

أغلق الكمبيوتر، واستلقى على سريره وهو ينظر إلى سقف الغرفة مُفكرًا في سر الساعة الرملية؛ قبل أن يغرق في نومٍ عميق.

في الصباح التالي اســـتيقظ (باسم) متحمسًا، فأعد لنفسه إفطارًا بسيطًا وكوبًا من القهوة المركزة، ثم جلس أمام الكمبيوتر وبدأ يبحث

عن كل شيءٍ متعلق بتاريخ الســـاعات الرملية؛ مقالات، أبحاث، أفلام وثائقية؛ عله يجد ضالته، ويســـتطيع إلقاء المزيد من الضوء على تلك القضية الغريبة، ولكنـــه لم يزدد إلا حيرة، فتاريخ الســـاعة الرملية مجهول بشـــكلٍ كبير؛ إلا أن العديد من الدلائل ترجح أنها ظهرت في أوروبا على يد الراهب (ليوتبراند) الذي خدم في كاتدرائية شارتر في فرنســـا، ولم تنتشر بشـــكلٍ كبير إلا في القرن الرابع عشر الميلادي، وهذه الفترة تعتبر قريبة نسبيًّا مقارنةً بعمر المقبرة المصرية القديمة مما يزيد اللغز غموضًا!

بدا الأمر كأنه يبحث عن إبرةٍ في كومة قش، لكنه لم يكن من النوع الذي يستسلم ببســـاطة، فعاد إلى أرشيف المجلات والجرائد القديمة، عله يعثر على أي طرف يستطيع جذبه، فجأة بعد بحثٍ طويل عثر على ما جذب انتباهه وأثار حماســـه، كان مقالًا في أحد أعداد مجلة (على مدار العام) التي كان يصدرها في الماضي الأديب الإنجليزي (تشارلز ديكنز) يعلق في هذا المقال على أدوات قياس الوقت؛ فذكر أن الساعة الرملية قد عُثر عليها مرســـومة في إحدى اللوحات الإغريقية القديمة؛ يمســـكها بيده (مورفيوس) إله النوم والأحلام الإغريقي مما يدل ـــــ من وجهة نظره ـــــ على أن الساعات الرملية كانت موجودة، ومتاحة في أيدي الناس في ذلك الوقت.

أثارت الفكرة حماس (باسم) فبحث عن اللوحات المرسومة لـــــ (مورفيوس) على الإنترنـــت، وتعجب أنهم كان يرســـمونه بأجنحةٍ

سوداء طويلة مفرودة لا تشـــبه أجنحة (إيروس أو هرمس) البيضاء القصيرة على غير عادتهم في رســـم آلهتهم، وهنا تذكر (باسم) شيئًا فعاد إلى صور الســـاعة الرملية يتفحصها مرةً أخرى، ولفت انتباهه الجناحان المضمومان حول الســـاعة الرملية، وأحس أن الرمز مألوفًا، فقـــرر أن يقوم بالمزيد مـــن البحث عن هذا الرمز بالذات (الســـاعة الرملية المجنحة) فعثر على العديد من المعلومات الغريبة، هذا الرمز اســـتخدمه أطباء الطاعون في القرون الوسطى عندما أصيبت أوروبا بالموت الأســـود، فقد كان الأطباء يرتدون ملابس سوداء غريبة وأقنعة تشبه وجه الغراب، ويحملون في أيديهم عصا تنتهي بالساعة الرملية والأجنحة، كما أن بعض القراصنة قد استخدموا هذا الرمز كشعارٍ لهم يرسم على الرايات السوداء التي تعلو سفنهم، ورُسم أيضًا على بعض شواهد القبور كرمزٍ للموت؛ وهنا اشتعلت حيرته وانهمرت الأسئلة على عقله؛ فما علاقة (مورفيوس) بالساعة الرملية، بالقراصنة، بالطاعون!!

تسارعت أصابع (باســـم) على لوحة المفاتيح وهو يكتب تقريره الصحفي عن الاكتشـــاف الأثري الجديد؛ ملحقًـــا بالصور عن علاقة الحضارة اليونانية بالحضارة المصرية في ذلك الوقت، وقد شعر في قرارة نفسه أنه أخيرًا قد عثر على التقرير الصحفي الذي سيغير حياته تمامًا.

الفصل الثاني

غريب في هرموبوليس

تلونت السماء بلون الشفق الذي يلي الفجر ويسبق شروق الشمس، حين تختلط حمرة السماء بزرقتها في الأفق، صابغًا الموجودات بلونه، وانعكس على سطح النيل ليتلألأ ماؤه بهذا اللون البديع، وعلى سطح النهر المتثائب شق مركب صغير طريقه متجهًا نحو الجنوب، بحركةٍ هادئةٍ رتيبة كأنه يخشى إزعاج النيل المستيقظ لتوه، على متن المركب كان البحارة يحركون المجاديف على جانبي المركب بعروقٍ نافرة، ووجوهٍ سمراء سفعتها الشمس؛ أما المسافرون فكانوا خليطًا من أجناسٍ عدة، يسافر كل واحدٍ منهم لغرضٍ في نفسه، في أحد الأركان جلس أحد المسافرين منزويًا على نفسه، يرتدي ملابس سوداء، وغطاء رأسٍ يخفي ملامحه، وقد ظل طيلة الرحلة صامتًا، وبقية المسافرين ينظرون ناحيته بتعجبٍ ورهبة، ومن آنٍ لآخر يتبادلون بعض الهمسات وهم يشيرون إليه خفية بينما لاذ هو بصمته دون أن تند عنه كلمة؛ حتى سمع صوت أحد البحارة يقول:

"لقد وصلنا إلى هرموبوليس."

رفع الرجل الغريب رأســـه على إثر صـــوت البحار، لتبدو ملامحه اليونانية واضحة، ونظر نحو الأفق؛ ليرى الشـــمس تشـــرق من وراء الجبل لتلقي بظلالها على مدينة (هرموبوليس ماجنا) تلك التي كانت تســـمي في الماضي (خمون) ولكنها أيام قد ولت، ترجل الغريب من على متن المركب، وســـار وحيدًا بخطواتٍ وئيدة ناحية المدينة؛ ومن ورائه اســـتكمل المركب رحلته في النيل، وقد تناسى المسافرون أمره بمجرد أن غاب عن أنظارهم.

أطلت الشـــمس بوجهها الذهبي على الكون، فأفســـح الشفق لها الطريق متواريًا في الأفق، لتلقي بضوئها الأبيض الصافي على أرجاء المدينة، وتعالى صياح الديكة بين جنباتها موقظًا ســـكانها النائمين، غادر عددٌ من الناس بيوتهم متوجهين إلى أعمالهم، ليقابلهم هذا الغريب بملابسه الســـوداء وغطاء الرأس الذي يزيده مهابة ويلقي بالرهبة في قلوبهم؛ فهم لم يعتادوا على مقدم الأغراب لمدينتهم الصغيرة، فرمقوه بنظراتٍ فضولية متشككة، أما الأطفال الذين اعتادوا على اللعب بمرحٍ في شوارع المدينة، فكانوا يختبئون بفزعٍ عند رؤيته.

تجاهلهم الغريب وهو يسير بين الأبنية الطينية الصغيرة، وأشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك؛ حتى وجد نفسه يقف أمام سورٍ صخريٍّ مرتفع، يختلف عن الأبنية الطينية الأخـــرى، فعرف أنه قد وصل إلى ضالته؛ إنه الآن أمام معبد (تحوت) في قلب المدينة القديمة.

كان المعبد قد فتح أبوابه مع شـــروق الشمس، مستقبلًا المصلين الوافدين لإنشاد الابتهالات والتبرك بالآلهة الثمانية المعبودة في خمون، وعلى رأسها الإله (تحوت) إله الحكمة والسحر والخيمياء، أمام البوابة الصخرية وقف حارسان صارمان، برأسٍ صلعاء وبشرةٍ سمراء لفحتها الشـــمس، وصدرٍ عريضٍ عارٍ، وقد التمعت عضلاتهما، وتوهج نصلا رمحيهما أسفل أشـــعة الشـــمس؛ ينظران إلى الداخلين والخارجين بنظراتٍ متفحصة.

تابع الغريب ســـيره مقتربًا من باب المعبـــد، ولكن هيئته الغريبة بملابسه السوداء وملامحه المتوارية في ظلال غطاء رأسه التي أثارت شكوك الحارسين، فتقاطع نصلا رمحيهما المعدنيين، ومد أحدهما يده أمامه قائلًا بلغته المصرية:

"قِفْ."

استمر الغريب في الســـير لبضع خطوات كأنه لم يفهم الكلمة، ثم توقف على مرمى بضعة أقدام من الحارسين، فسأله الحارس:

"ماذا تريد؟"

هنا تحدث الغريب بلغةٍ مصرية ذات لكنةٍ غريبة غير مألوفة لأسماع الحارسين:

"أنا هنا لزيارة الإله (تحوت) والابتهال له والتبرك به."

تأمله الحارسان بشك، ثم قال أحدهما بصوتٍ صارم:

"غير مسموح بدخول الغرباء."

بحركةٍ حادة أزاح الغريب غطاء رأســـه لتظهـــر ملامحه الغريبة، ببشـــرته البيضاء، وشـــعره الأشـــقر، وعينيه الزرقاوين، محدقًا إلى الحارسين بنظراتٍ غاضبة مخيفة، ثم قال بصوتٍ جاف:

"لم أقطع كل هذا الطريق من أثينا إلى خمون، كي يمنعني شخص مثلك من الدخول."

توترت أيدي الحارســـين على رمحيهما، وتأهب أحدهما للحديث بانفعال، عندما أتى صوت رخيم من وراء الحارسين يقول:

"خمون! لم أســـمع هذا الاســـم منذ زمنٍ بعيد، فمنذ مقدم هؤلاء اليونانيين أصبح لكل شيءٍ اسمٌ جديد."

حدق الغريـــب بعينيه ناحية مصدر الصوت، فرأى كاهنًا عجوزًا ذا رأسٍ صلعاء، ولحيةٍ رمادية، يرتـــدي جلد النمر المميز للرهبان، على الفور انحنى الحارسان على ركبتيهما، مطرقين برأسيهما أرضًا، وهما يغرسان رمحيهما في الأرض الرملية، وقال أحدهما باحترامٍ شديد:

"حضرة الكاهن الأكبر (توت ـــ حتب).. هذا الغريب يريد أن يدخل المعبد يا سيدي."

نظر (توت ـــــ حتـــب) إلي الغريب نظرة متمعنة متأنية، قبل أن يقول:

"معبد (تحوت) مفتوح لكل المريدين؛ لن نمنع أحدًا من دخوله."

ثم استدار عائدًا تجاه مبنى المعبد الرئيسي بينما أفسح الحارسان للغريب، الذي رمقهما بنظرةٍ باردة وهو يضع غطاء رأسه مرة أخرى، ثم لحق بالكاهن الأكبر ليسير وراءه قاطعًا الساحة الخارجية للمعبد، حيث توجد تماثيل آلهة الأخدود الثمانية ورأى بعض البسطاء يتقربون إليهم بالنـــذور والتبريك، الذين ما أن يلاحظـــوه حتى يحدقون إليه بنظراتٍ فضولية، فتجاهلهم وهـــو يلحق بالكاهن داخل رواق المبنى الرئيسي للمعبد، فسأله (توت ـــــ حتب) دون النظر إليه:

"ما اسمك أيها الغريب؟"

أجابه باحترام:

"اسمي (يوليسيس)."

مشط الكاهن العجوز لحيته الرمادية بين أصابعه، وقال باهتمام:

"اسم غريب يحمل رنينًا يونانيًا مميزًا يتفق مع هيئتك."

في هذه اللحظة، انتهى ســـيرهم إلى بهوٍ متسعٍ مضاء بالشموع، جنبًا إلى جنب مع أشـــعة الشمس المتســـللة من بين بعض الفتحات الصغيرة في الجـــدران الصخرية، بمنتصف البهـــو ينتصب تمثال (تحوت) على هيئة رجل بـــرأس ابن منجل، يلتف حوله بعض الكهنة يحرقون البخور ويستقبلون النذور من المصلين الذين بدا عليهم يُسْر الحال، عكس البســـطاء في الخارج، والكهنة يمسحون على رؤوسهم بمادةٍ زيتية، تنبعث منها رائحة نفّاذة، خيم الصمت على الجميع عندما

شطا (يوليســـيس) بهيئته الغريبة إلى بهـــو المعبد، ولكنهم اطمأنوا لوجود الكاهن الأكبر معه، فعاد كل منهم إلى ما يشغله، ومن ثم أشار الكاهن إلى (يوليسيس) كي يتبعه إلى غرفةٍ صغيرة ملحقه بالبهو، ثم أغلق الباب خلفه، مشيرًا إليه بالجلوس.

تأمله الكاهن الأكبر مجددًا بنظراته الثاقبة، التي أحس (يوليسيس) أنها تخترق روحـــه ذاته، قبل أن يقول بنبرتـــه الهادئة الوئيدة وهو يمشط لحيته بأصابعه كعادته:

"في المعتاد يذهب اليونانيون إلى الإســـكندرية، حيث المســـارح والفنون، والحيـــاة الفاخرة المرفهة، فما الذي أتـــى بك إلي مدينتنا الصغيرة؟"

حاول (يوليسيس) أن يقابل نظرات الكاهن الأكبر بنظراتٍ مماثلة ولم يستطع، فأطرق أرضًا هاربًا من نظراته وهو يقول:

"أرغب في تسخير حياتي لخدمة (تحوت) المعظم."

صمت (توت ـــ حتب) قليلًا وهو ينظر ناحية (يوليسيس) المطرق أرضًا، وقال بنفس النبرة الهادئة التي لم تتغير:

"أتعجب من أن يصدر هذا من يوناني!"

جثا (يوليسيس) على ركبتيه، فغرق وجهه في الظلال وهو يقول:

"لقـــد نذرت حياتي منذ عهـــدٍ بعيد أن أقضيها فـــي خدمة الإله (تحوت)."

نظر إليه الكاهن باهتمامٍ كأنه يحاول أن يستشف ما يدور بأعماقه، فأمسك (يوليسيس) بركبتيه وهو يقول متوسلًا:

"لا أرغب سـوى أن أصبح كاهنًا في معبد (تحوت) لا ترد مؤمنًا مخلصًا جاء لنذر حياته من أجل (تحوت)."

بدت حيرة خافتة في عينيّ الكاهن الأكبر، سرعان ما تلاشت كلمع البرق، سائلًا (يوليسيس) بصوتٍ عميق:

"هل أنت مستعد للقسم على حفظ أسـرار المعبد، وإفناء حياتك كاهنًا، وخادمًا للإلـه المبجل (تحوت) تاركًا حياتـك القديمة وراء ظهرك؟"

التمعت عينا (يوليسيس) بحماس، ووضع يده على صدره وهو يقول:

"أقسم."

نظر الكاهن إلى (يوليسيس) الراكع أمامه على ركبتيه، وقد وضع يده على صدره مقسمًا ثم وضع يده اليمنى على كتفه قائلًا:

"مرحبًا بك في معبد الإله (تحوت)."

***

مضت أيام خدمة (يوليسيس) في معبد (تحوت) هادئة ومسالمة، كان المعبد يعج بالكهنة، والكُتّاب والخدم، والعابدين والناذرين طيلة النهار، وجزء من الليل، بمرور الوقت أصبح وجود (يوليسيس) مألوفًا، ولا يثير العجب كالسـابق، فالاعتياد يقتل الغرابة كما يقال، لكن أكثر

ما أثار اهتمامهم هو شـــغف (يوليســـيس) بالقراءة، فكثيرًا ما يجده الكهنة في مكتبة المعبد عاكفًـــا على إحدى البرديات، واضعًا بجواره مصباحًا زيتيًّا، يقرأ الحروف الهيروغليفية الخاصة بالكهنة على ضوئه المتراقص.

من بعيد وقف الكاهن الأكبر يمســـد لحيتـــه الرمادية بأصابعه، وبجواره كاهن شاب حاد الملامح يراقبان (يوليسيس) دون أن يشعر، والكاهن الأكبر يقول:

"يا له من شخصٍ مثير للعجب! متى تعلم قراءة الهيروغليفية؟"

فقال الكاهن الشاب:

"إنه مثير للريبة يا سيدي! لا أحبذ وجود هذا اليوناني في المعبد."

ابتسم الكاهن الأكبر، وقال للكاهن الشاب:

"تعلم القراءة والاطلاع على الحكم والقصص والتعاليم؛ ليس شيئًا محرمًا."

فقال الكاهن الشاب مدافعًا عن نفسه:

"ولكننا لا نعرف نواياه بعد يا سيدي..."

ابتسم الكاهن الأكبر، وهو يقول:

"أنت لا تحبه فقـــط لأنه يوناني يا (من ـــ بتـــاح) أتفق معك أن فضوله وشغفه بالمعرفة أمر مثير للاهتمام، لكنه لم يفعل شيئًا خطأ حتى الآن."

فقال (من ـــــ بتاح) بضيق:

"كما ترى يا سيدي."

ورغـــم كلام الكاهن الأكبر؛ اســـتمر (من ـــ بتـــاح) في مراقبة (يوليسيس) سرًّا، لكن (يوليسيس) بدا شـــخصًا طيبًا ودودًا، يمد يد العـــون للجميع، وما زاد من حنق (من ـــــ بتاح) وضيقه؛ أن الكاهن الأكبر قام بترقية (يوليســـيس) من خادمٍ إلى كاتب، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الكاتب الخاص بالكاهن الأكبر، وهي مرتبة عظيمة يطمح إليها العديد من الكُتّاب.

في يومٍ من الأيام؛ أثناء ســـير (من ـــ بتاح) بجوار كاهنٍ شـــابٍّ آخر، شاهدا (يوليســـيس) والكاهن الأكبر جالسين على ضفاف النيل، و(يوليســـيس) مشـــغول بكتابة ما يمليه عليه الكاهن الأكبر، فظهر الغضب على ملامح (من ـــــ بتاح) وقال:

"لو كان يحكم مصر ابن إله من نسل الآلهة لما رأينا هذا يحدث، أما الآن وهؤلاء اليونانيون في سدة الحكم فلا تستبعد أي شيء."

فقال له الكاهن الآخر بخوف:

"صه! لو سمعك الكاهن الأكبر، فلن يحدث لك خير."

صمت (من ـــ بتاح) في غيظ، إلا أن شعوره بالحقد والحسد ناحية (يوليسيس) أخذا يزدادان كل يوم، وأخذ يردد بين الكهنة قائلًا:

"هذا اليوناني يسعى وراء شيءٍ ما."

ولكن وجود (يوليسيس) في المعبد أصبح معتادًا، ولم تعد كلمات (مـــن ـــ بتاح) تلقى أي صدى بين الكهنـــة، وذهبت تحذيراته أدراج الرياح.

الفصل الثالث

القادم من اسكتلندا

شعر (باسم) بسعادةٍ بالغة عندما نشرت الجريدة مقاله ورقيًّا بدلًا من الاكتفاء بنشره إلكترونيًّا، فإلحاق المقال بالجريدة المطبوعة؛ علامة على نجاحه وخطوة هامة له في مشواره الصحفي، حقق مقال (باسم) ضجة كبيرة بين أوساط المهتمين بالآثار والتاريخ المصري القديم، وكما توقع (باسم) فقد طُبع المقال في الجريدة الورقية، وتُرجم على الموقع إلى لغاتٍ عدة، مما جعله يشعر بالفخر والسعادة، قرر (باسم) بعدها أن يتواصل مع (د. مصطفى) العالم المسؤول عن الاكتشاف ليتناقش معه فيما توصل إليه من معلوماتٍ مثيرة عن الساعة الرملية، ولم يكن العثور على رقم هاتفه صعبًا، بعد بضع ثوانٍ من الرنين جاءه صوت (مصطفى) من الناحية الأخرى يسأل عن السائل، وبعد أن عرفه بنفسه قال (مصطفى) ضاحكًا:

"أهذا أنت؟ لقد تسبب مقالك في انهمار شلالٍ من المكالمات فوق رأسي، كنت أظنك في البداية مجرد صحفي فضولي لا أكثر، ولكن عليّ أن أعترف أن بحثك بشأن الساعة الرملية قد أثار اهتمامي حقًّا."

أحس (باسم) بالسعادة لهذا الإطراء من عالمٍ كبير، ثم قال له:

"في الحقيقة، أحادثك لأنني كنت أود النقاش معك فيما كتبته في مقالي."

أجابه صوت (مصطفى):

" فكرة رائعة، ما رأيك أن تمر عليّ بمقر عملي لنتناقش سويًا بهذا الشأن."

رحب (باسم) بهذا العرض على الفور، وبمجرد إغلاق الهاتف، بدل ملابسه وخرج من بيته ليستقل الحافلة متجهًا ناحية مركز الأبحاث التابع لهيئة الآثار المصرية لمقابلة (مصطفى) ثم قضيا سويًا يومًا طويلًا في مناقشة الأمر وتحليله من كافة جوانبه، يتخلل تلك النقاشات الطويلة بعض الشاي والكعك، ولاحقًا وجبة غداءٍ دسمة طلبها (مصطفى) من أحد المطاعم القريبة من مركز الأبحاث، وما أن اقترب المساء حتى غادر (مصطفى) و(باسم) المركز متجهًا كل واحدٍ منهما إلى بيته، استقل (باسم) الحافلة المتجهة لمنطقته السكنية حيث يقطن، وما أن هبط منها حتى سار بخطواتٍ مسرعة ناحية بيته، متعجلًا لفحص بريده الإلكتروني لمعرفة إن كان هناك جديد بشأن المقال، ولكن في الطريق راوده إحساس غريب، إحساس أنه مراقب، حاول طرد هذا الإحساس فلم يستطع، ومن وقتٍ لآخر كان ينظر من وراء كتفه فيرى المارة يسير كل واحدٍ منهم إلى شأنه، لا أحد يلتفت إليه.

قطع عدة شـــوارع متجهًا إلى بيته، وفي إحدى المرات وهو يلتفت أحس بظلٍّ أســـود يتوارى في أحد المنحنيات؛ هل شاهد هذا حقًّا، أم أن مخيلته تخدعه بســـبب توتره؟! توقف في موضعه متجمدًا لبضع لحظات وهو يحدق إلى موضع اختفاء الظل، فلم ير شيئًا، وبدأ بعض المارة ينظرون إليه فـــي فضول، فلما انتبه لذلك طـــرد تلك الفكرة من رأسه وســـار مســـرعًا إلى بيته، حتى وصل إلى العمارة السكنية الموجودة بها شقته، صاعدًا السلم في خطواتٍ سريعة قافزة، ثم فتح باب الشـــقة بالمفتاح متجهًا ناحية جهاز الكمبيوتر لتشغيله، فأطلق هديره المكتوم المعتاد، ترك نظام التشـــغيل يأخذ وقته في الإطلاق وكتابة الرســـائل الترحيبية واتجه إلى مطبخه لإعداد فنجانٍ مركزٍ من القهوة، ثم عاد مجددًا كي يتفحص بريده الإلكتروني.

كان هناك عدد من الرســـائل التقليدية التـــي تفحصها بلا اكتراثٍ حقيقي وهو يأخذ بين الفينة والأخرى رشفةً من فنجانه؛ إلا أن رسالة واحدة لفتت انتباهه، كانت رسالة مكتوبة بالإنجليزية مرسلة منذ عدة ساعات، وعنوان البريد المُرسِل غريبًا لم يره من ذي قبل، تصفحت عيناه الرسالة فوجد أن صاحب الرسالة يخبره أنه عالم اسكتلندي متخصص في الأنثروبولوجيا، وأنه مهتم للغاية بمقاله عن الســـاعة الرملية التي عُثر عليها في أطلال المدينة الفرعونية، ويتمنى أن يتواصل معه.

لم يصدق (باسم) أن شخصًا اسكتلنديًّا، وعالمًا في الأنثروبولوجيا يهتم بمقاله، وتعجب من توصله إلـــى عنوان بريده الإلكتروني؛ لكنه

تذكر أن البريد الإلكتروني يوضع أســـفل اسم كاتب المقال، بالإضافة لكون مقاله قد تُرجم للإنجليزية، فكتب له (باسم) أنه يسعده التواصل معه، والإجابة على كل أســـئلته عن طريق البريد الإلكتروني ثم ضغط (إرسال) وبعدها ظلت أســـئلة كثيرة تدور في عقل (باسم) كان اسم الرجل علـــى البريد الإلكتروني (ريتشـــارد) إلا أنه لا توجد معلومات كثيرة على صفحته الخاصة، مرت الدقائق بطيئة قبل أن يسمع تنبيهًا من الكمبيوتر بوصول رسالةٍ جديدة. قفز (باسم) من مقعده، وأسرع إلى الكمبيوتر ليجد ردًّا جديدًا من (ريتشارد) يخبره أن التواصل عبر الإنترنت لا يكفي، وأنه ســـيأتي إلى مصر بنفسه، وأنه قد حجز تذاكر الطائرة من اسكتلندا إلى القاهرة، وسيصل صباح اليوم التالي، ويتمنى أن يستقبله (باسم) في المطار.

شعر (باسم) بفخرٍ شديد لأن هناك عالمًا سيأتي إلى مصر خصوصًا من أجله، وبسرعة رد عليه وأخبره أنه سيكون بانتظاره في المطار في موعد وصول الطائرة.

أخرج (باسم) هاتفه ليتصل بـــــ (مصطفى) على الفور، وسمع رنين الهاتف عدة مرات قبل أن يسمع صوت (مصطفى) يجيبه، وبعد تبادل الترحيب قال (باسم):

"أنا أحدثك بشأن الساعة الرملية، فهناك عالم أجنبي مهتم بالأمر."

في دقائق شرح له (باسم) كل ما حدث، وشعر أن حماسه قد انتقل إلى (مصطفى) الذي قال له:

"غدًا ســـأكون في مقر الأبحاث؛ ربما تكون فرصة جيدة ليحضر ضيفك إلينا، ونتناقش في الأمر."

ودعه (باســـم) وبعد إنهاء المكالمة، قرر أن يعد نفسه لهذا اللقاء المرتقب.

***

في قصرٍ قديم بحيٍّ من أحياء القاهرة العريقة، ســـار رجل يرتدي حلةً رســـميةً سوداء، بخطواتٍ ســـريعة بين ردهات القصر الشاسعة المزينة بالتحف الأثرية، وتتناثر على جدرانها لوحات فنية مشـــهورة ذات طابـــع إغريقي، حتى أثاث القصر بدا كتحفـــةٍ فنيةٍ عريقة، كان يمســـك بإحدى يديه عددًا مطويًّا من جريدة وقد ارتسمت على وجهه الجدية والصرامة، وقف له الخدم أثناء مروره احترامًا؛ لكنه لم يبد أي اهتمام، صعد بخطواتٍ مسرعة سلمًا خشبيًّا مزخرفًا ومنحوتًا بمهارة حتى وصل إلى الطابق الثاني ليقف أمام بابٍ خشـــبيٍّ لا يقل عن بقية القصر جمالًا أو زخرفة، انتابه إحساس بالرهبة والتوتر، فعدل ربطة عنقه وتنحنح قليلًا قبل أن يرفع يده، ويطرق الباب عدة طرقات، تبعها صمتٌ مهيبٌ قبل أن يسمع صوتًا عميقًا يجيبه:

"ادخل."

بهدوءٍ، فتـــح الباب ليدلف إلى الغرفة، مغلقًا الباب وراءه، ثم وقف أمام رجلٍ كهل أصلع الرأس، يجلس وراء مَكتبٍ خشبيٍّ ممتلئٍ بالنقوش التي تتناســـق مع الأثاث الموجود في المـــكان، أما الحجرة ذاتها فقد

كانت جدرانها مزينة باللوحات ذات الطراز الإغريقي، بينما كان وراءه لوحة ضخمة لإلهٍ إغريقي بجناحين أسـودين يطل على الكون بهيئته المهيبة وجناحاه يلقيان بظلالهما على عددٍ كبير من البشـر ينحنون له احترامًا.

كان الرجل يمسـك بين يديه كتابًا منهمـكًا في قراءته، لاذ الرجل بالصمت، منتظرًا أن يأذن له سيده بالحديث، غير راغب في مقاطعته عن القراءة كيلا يثير غضبه، فتشاغل هو بتأمل اللوحات الإغريقية في صمتٍ وترقب، وبعد مرور بضع دقائق رفع الرجل العجوز عينيه وقال:

"ماذا هناك يا (مراد)؟"

انحنى (مراد) انحناءة خفيفة، وهو يضم يده اليمنى على صدره قائلًا:

"فليأذن لي سيدي بالكلام."

فقال له الكهل:

"تكلم."

اعتدل (مراد) وهو يقول ببطءٍ كأنه ينتقي كلماته:

"يبدو أن الشائعات صحيحة يا سيدي."

ثم وضع الجريدة التي يمسـكها بيده اليسـرى أمام سيده على المكتب، وفتحها على خبرٍ محدد، نظر إليه الكهل غير مصدق، ثم شرع في قراءة الخبر، وبعدما انتهى من القراءة قال (مراد):

"لقد راقب رجالنا الصحفي صاحب الخبر، يبدو أن الساعة ليست بحوزته، بل محفوظة بأحد المراكز البحثية التابعة للحكومة."

بعدما انتهى من حديثه، خيم الصمت على المكان بضع دقائق؛ قبل أن يقبض الكهل على عصا خشبية موضوعة بجواره، ويمسك بمقدمتها المنحوتة على شـــكل ســـاعةٍ رملية تحتوي على جناحين مضمومين ليتكئ عليها، واســـتدار لينظر إلى اللوحة المعلقة خلفه التي رسم بها رجل ذو جناحين أسودين، وأخذ يتأملها مستغرقًا في أفكاره، ثم أدار رأسه للرجل الواقف خلفه، وقال له:

"اســـتعد يا (مراد) أريدك أن تتولى مهمة إحضار هذه الســـاعة بنفسك."

فانحنى (مراد) وقال:

"أمرك (سليم) باشا."

في تلك اللحظة؛ ســـمع كلاهما صوت خطـــواتٍ ثقيلة تقترب من المكان، ثم سمعا صوتًا أنثويًا متناقضًا مع صوت الخطوات يقول:

"فلتأذن لي بتنفيذ هذه المهمة يا أبي."

نظر (مراد) ناحيتها ليجد (إينور) ابنة (ســـليم) باشـــا المراهقة المتهورة بملامحها الرقيقة وبشرتها البيضاء وشعرها الأسود القصير بينما كان وراءها (رستم) حارسها الخاص ضخم الجثة الذي لم ينبس ببنت شفة، ولقد كان هو مصدر صوت الخطوات.

انعقد حاجبي (مراد) في ضيقٍ واضح، ثم التفت إلى سيده (سليم) وفتح فاه كي يتكلم ولكن (سليم) أشار له بالصمت، ثم قال لابنته:

"أدرك رغبتك في إثبات نفســـك، ولكن هذا الأمـــر خطير للغاية، سيتولى (مراد) الأمر."

تنهد (مراد) بارتياح، فرمقته (إينور) بغضب، ســـرعان ما اختفى وهي تنحني وتقبل جبهة أبيها بحركةٍ طفولية، ثم تقول بدلال:

"أرجوك يا أبي!"

فقال (سليم):

"الشـــائعات تقول إن الخيميائيين أيضًا يبحثون عن هذه الساعة، وسيرسل الهرامســـة أقوى وراءها؛ لذا لا أستطيع أن أسمح لكِ بتولي الأمر."

تراجعت (إينور) وركلت الأرض بقدمها في حركةٍ طفولية غاضبة، ثم قالت لأبيها:

"كما تشاء."

ثم استدارت لتغادر الغرفة، وهي ترمق (مراد) بنظرةٍ قاسية؛ بدت متناقضة مع ملامحها الرقيقة، ثم أشارت لـــــ (رستم) قائلة:

"اتبعني."

تبعها (رستم) بخطواته البطيئة دون أن ينبس ببنت شفة، أما (سليم) فقد التفت ناحية اللوحة المعلقة وراءه مرةً أخرى وقال:

"أحضر لي هذه الساعة بأي ثمن يا (مراد) فيبدو أننا قد اقتربنا أخيرًا من حلم (مورفيوس)."

أغمض (مراد) عينيه، وقال بخشوع:

"فلتحل عليه البركة في الظلام."

بالخارج سمعت (إينور) هذا الحوار الدائر بين أبيها و(مراد) فارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة، وقالت:

"استعد يا (رستم) سنذهب لإحضار الساعة الرملية."

فزمجر (رستم) في حماسٍ دون أن يضيف شيئًا آخر.

***

جلس (باسم) في مطار القاهرة ينتظر وصول ضيفه المهم، كان يشعر بالتوتر ويفكر في الكلام الذي سيتبادله مع ضيفه المهم، كان يشعر في دخيلة نفسه بالفخر، أن يأتي ضيف أجنبي خصوصًا من أجل بحثه، ترى ماذا سيقول زملاؤه بعدما يعرفون بالخبر؟ لا شك أنهم سيغبطونه، أو سيحسدونه! استغرق في أفكاره حتى سمع شخصًا ينادي اسمه بلكنةٍ غريبة، فرفع رأسه ليجد رجلًا في أوائل العقد الخامس من العمر، ذا عينين زرقاوين، وشعرٍ أشقر قد خالطه بعض الشيب ليضفي عليه المزيد من الهيبة والوقار، كان يرتدي

حلة رسمية، بنية اللون بدون ربطة عنق، أدرك أنه (ريتشارد) ضيفه المنتظر، لا شك أنه قد تعرف عليه من صورته المنشورة مع المقال، وبعد أن تصافحا وتبادلا عبارات الترحيب باللغة الإنجليزية التي يجيدها (باسم) سأله قائلًا:

"هل هذه هي زيارتك الأولى لمصر؟"

فأجابه (ريتشارد) بلهجةٍ عربيةٍ فصحى؛ ذات لكنةٍ أجنبية واضحة:

"لقد زرت مصر عدة مرات من قبل، ولدي العديد من الأصدقاء هنا في مصر."

فوجئ (باسم) من إجادته للعربية، لكن هذا أسعده، ولاحظ أن (ريتشارد) يحمل في يده حقيبة صغيرة، وبدا أنه لم يواجه مشاكل أثناء إنهاء الأوراق في المطار، وعندما أصبحا خارج المطار؛ سأله (ريتشارد) عن الساعة الرملية، فقال له (باسم):

"نحن متجهان لمقابلة العالم الذي اكتشف هذه الساعة، وربما نستطيع رؤيتها بأنفسنا."

أوقف (باسم) سيارة أجرة، ودعا (ريتشارد) للركوب في المقعد الخلفي للسيارة وهو يفتح له الباب، انحنى (ريتشارد) ليركب السيارة، فتسلسلت من طيات قميصه سلسلة فضية ملتفة حول عنقه يتدلى منها مفتاح فضي أنيق، أسرع (ريتشارد) بإعادته أسفل القميص، ثم أغلقه بإحكام، لم يكن الأمر ليثير انتباه (باسم) لولا رد الفعل المفاجئ

لـــ (ريتشـــارد) إلا أنه تجاهل الأمر، وفتح الباب المجاور للسائق، ليجلس بجواره وهو يخبره بوجهتهما.

نظر عبر المرآة إلى (ريتشارد) الذي أراح رأسه إلى الخلف، وأغلق عينيه كأنه قد غرق في النوم، وتشـــاغل (باســـم) بتأمل الشارع عبر زجاج نافذة السيارة حتى وصلت السيارة إلى وجهتها أخيرًا، وتوقفت أمام مبنى الأبحاث التابع لهيئة الآثار المصرية.

في مكتبـــه، كان (مصطفى) جالسًـــا في انتظارهمـــا، وبمجرد وصولهما رحب بهما بحرارة، ودعاهما إلى الجلوس، قدمهما (باسم) إلى بعضهما البعض، ثم سأل (مصطفى) (ريتشارد):

"هل نكمل حديثنا بالإنجليزية أم بالعربية؟"

فأجابه (ريتشارد) مبتسمًا:

"كما تشاءان، فأنا أجيد اللغتين."

فقال له (مصطفى) بالعربية:

"لقد أخبرني (باسم) أنك عالم في الأنثروبولوجيا."

فابتسم (ريتشارد) وهو يقول:

"أجل، فأنا حاصل على دكتوراه في علم الأنثروبولوجيا من جامعة إدنبرة، لكن لدي بعض الاهتمامات الأخرى بجوار تخصصي."

أثار هذا فضول (باسم) الذي أمسك بيده تمثالًا فرعونيًّا صغيرًا، فأعاده إلى موضعه وهو يقول:

"وما هي الاهتمامات الأخرى؟"

فاعتدل (ريتشارد) في جلسته وقال:

"لي بعض الدراسات بمجال الميتافيزيقا، وما وراء الطبيعة والخوارق، ولعل هذا ما أتى بي إلى هنا حقًّا."

هنا بدأ الحوار يتخذ منحى أكثر جدية، وصمت (ريتشارد) برهة كأنه يرتب أفكاره والكلام الذي سيقوله، وأنصت (باسم) و(مصطفى) منتظرين ما سيقول، وهنا تكلم (ريتشارد) فقال:

"ما أثار اهتمامي في بحث (باسم) المنشور هي الساعة الرملية التي اكتُشِفَت، فالساعة الرملية المجنحة تشير إلى فترة تقاطعت فيها الحضارة الإغريقية مع الحضارة المصرية القديمة، وأحد الطقوس السرية التي كانت تمارس آنذاك."

صمت (ريتشارد) لحظة، وقد أثار كلامه فضولهما، فسأله (مصطفى) متعجبًا:

"تعني أنك تعرف سر الساعة الرملية المجنحة؟"

فقال له (ريتشارد):

"لا شـــك أنك رأيتها من قبل، ربما كما ذكر (باســـم) في مقاله؛ مرسومة على شاهد قبر، أو على رايات القراصنة، أو مستخدمة كشعارٍ للموت في مكانٍ ما؟"

فقال له (مصطفى) وهو يفكر:

"في الحقيقة هذه كانت المرة الأولى التي أشاهدها فيها."

فحك (باسم) ذقنه وهو يقول:

"أنا أيضًا لا أعتقـــد أنني رأيتها على أرض الواقع من قبل، إلا أثناء كتابة المقـــال عندما رجعت إلى بعض المصادر، ورأيتها مرســـومة كشعارٍ للأطباء أثناء اجتياح الموت الأسود، أو الطاعون لأوروبا، لكنني لم أفهم السبب."

سأل (ريتشارد) (مصطفى):

"هل يسمح بالتدخين هنا؟"

أومأ له (مصطفى) برأســـه دلالة على الإيجاب، فأخرج من حقيبته الصغيرة علبة ســـجائر معدنية، تناول منها سيجارة، وقام بإشعالها بقداحةٍ معدنية شـــبيهة بالعلبة، ليأخذ منها نفسًـــا عميقًا، ثم نفث الدخان في الهواء، وبدأت أعصابهما تحترق وهما ينتظران ما سيقوله بشغف، ومن ثم قال (ريتشـــارد) وهو ينظر إلى الدخان الذي يصنع أشكالًا غريبة في الهواء:

"في عصورٍ قديمة للغاية كان هناك مجموعة أطلقوا على أنفسهم اسم (النيكرومانتيا) أو (النيكرومانســـي) يمارسون طقوس السحر الأسود، وقد مارسوا طقوسهم على الجثث، وارتكبوا الكثير من جرائم القتل، وأصبح الانتماء لهم جريمة تســـتوجب الإعدام، والساعة الرملية المجنحة هي شعارهم."

كان (مصطفى) ينظر إليه بدهشة، بينما (باسم) أخرج ورقة وقلمًا وبدأ بالكتابة، فقال له (ريتشارد):

"من الأفضل أن يظل هذا الحوار بيننا مؤقتًا، ولا داعي لنشر شيءٍ عنه حتى نتيقن من الحقيقة."

ثم التفت إلى (مصطفى) وقال:

"والآن هلا أحضرت الساعة الرملية؟ فأنا أتمنى رؤيتها بنفسي."

قال له (مصطفى):

"أخشى ألا أستطيع فعل ذلك، فالساعة موضوعة في غرفةٍ خاصة بالمركز محاطة بصندوقٍ من الزجاج؛ الـــذي يطلق صافرة إنذار إذا لمســـه أحدهم بدون إدخال كود معين، وليس لي سلطة إخراجها من الصندوق."

انعقد حاجبي (ريتشارد) مفكرًا ثم قال:

"ألا يمكنني حتى رؤيتها من وراء هذا الصندوق الزجاجي؟"

تبادل (مصطفى) النظرات مع (باسم) ثم قال:

"أعتقد أنه يمكننا ذلك."

فأطفأ (ريتشارد) سيجارته في المنفضة الموضوعة أمامه ثم قال:

"جيد، هيا بنا."

فسار (مصطفى) يتبعه (باسم) و(ريتشارد) متجهين إلى الغرفة المحفوظ بها الساعة الرملية المجنحة.

الفصل الرابع

مبعوث (مورفيوس)

خيم الهدوء على المعبد الغارق في السكون، وهواء الليل البارد المشبع برائحة الرطوبة يهب عليه من جهة النيل العظيم، وغط الكهنة والخدم في نومٍ عميق بعد يومٍ طويلٍ شاق، وفجأة سمع (من ـــ بتاح) صوتًا في الممر خارج غرفته، فانتبه على الفور وتسلل من فراشه خارجًا من الباب ليرى من هناك، فلمح ظلًّا يختفي في نهاية الممر المضاء بالمصابيح الزيتية، فاقترب بحذرٍ ليجد (يوليسيس) يقف أمام تمثال (تحوت) في بهو المعبد، فقال (من ـــ بتاح) في دخيلة نفسه بظفر:

"كنت أعرف أن هذا اليوناني يسعى وراء شيءٍ ما!"

وقف (يوليسيس) أمام تمثال الإله (تحوت) صامتًا بضع لحظات، ثم مد يده ولمس مجموعة حروف هيروغليفية في قاعدة التمثال، وهنا تحرك التمثال بصوتٍ كالحفيف ليكشف في قاعدته عن فتحةٍ تؤدي إلى سردابٍ أسفل الأرض، لم يكن (من ـــ بتاح) يعرف بوجود مثل هذا السرداب من قبل، فانتابته الحيرة؛ أنى لـــ (يوليسيس) بمعرفة

وجود هذا السـرداب، أو إلى أين يؤدي؟ ما الذي يسـعى وراءه هذا اليوناني بالضبط؟!

حمل (يوليسـيس) أحد المصابيح الزيتية الموضوعة في الردهة، وغاب داخل الفتحة المؤدية للسـرداب، فلحق به (من ـــ بتاح) في فضول، وهو يشعر بسعادةٍ غامرة لإمساكه بشيءٍ يؤكد شكوكه ناحية اليوناني الغريب وربما يقنع الكاهن الأكبر بطرده من المعبد.

سار (من ـــ بتاح) وراء (يوليسيس) في سراديب متقاطعة أسفل الأرض مكونة متاهة من أنفاقٍ متعددة، كان المكان شديد الظلمة، ولولا المصباح الزيتي الذي يحمله (يوليسيس) في يده؛ لما رأى شيئًا أمامه، كانت شبكة معقدة من الأنفاق؛ إلا أن (يوليسيس) كان يسير بداخلها كما لو كان يعرف طريقه جيدًا، كأنه سار في هذه الأنفاق مئات المرات من قبل، قابله في أحد المنحنيات هيكل عظمي شـبه متحلل لبائسٍ تـاه في هذه المتاهة المميتة، كان هناك بعض الفئران تركض في كل مكان، وهي تصدر أصواتًا حـادة مزعجة، لا يعرف من أين تأتي، ولا إلى أين تذهب.

شعر بالخوف، وراودته عدة مرات فكرة العودة؛ إلا أنه كان مصرًّا على الإمسـاك بـ ـــ (يوليسيس) بأي ثمن، تابع تسلله الصامت وراء غريمه اليوناني، حتى ألقى المصباح ضوءه على بابٍ صخريٍّ غريب، نحتت عليه أفعى صخرية مخيفة على شـكل كوبـرا متحفزة؛ تفتح فكيها لتبرز منهما أنيابها الحادة.

شـــعر (من ـــ بتاح) بفضولٍ شديد تجاه الباب الصخري، وتذكر الحكايات المروية عن الأفعى واجيت التي تحرس كتاب السحر الأعظم لـ (تحوت) وزادت دهشته عندما رأى (يوليسيس) يمد يده أمامه ولم يعرف مـــا الذي يريد أن يفعله، ثم فغر فاه عندما رأى كرة من الطاقة تتشـــكل بين أصابع (يوليسيس) كقطعةٍ من ســـماء الليل المرصعة بالنجوم، ورأى رأس الأفعى تبتلع تلك السماء ليخيم عليها صمت رهيب كأن شيئًا لم يحدث، وتساءل (من ـــ بتاح) سرًّا: ما الذي سيحدث الآن؟

فجأة اهتز المكان بقـــوة، وبدويٍّ هائل؛ غاص الباب الصخري في الأرض ببطءٍ وانتشرت ســـحب غبار كثيفة، فوضع (من ـــ بتاح) يده على فمه كي لا يســـعل، حتى ساد المكان الصمت مرةً أخرى، وانقشع الغبار، فرأى (يوليســـيس) يتقدم حامـــلًا المصباح يضيء له الغرفة التي لم يكن (من ـــ بتاح) يتصور وجودها هي وتلك المتاهة أســـفل المعبد، وسار وراء (يوليسيس) بين صفين من اثني عشر تمثالًا لأناسٍ مجنحين لا يشـــبهون أي شـــيءٍ رآه قط في حياته، حتى وصل أخيرًا إلى عرشٍ ذهبي؛ يجلس عليه رجل ضخم ذو جناحين عظيمين، وعلى رأسه تاج به ثلاثة أحجارٍ كريمة بثلاثة ألوانٍ: الأزرق والأحمر والأبيض، كان التمثال منحوتًا بدقة، حتى بدا كأنه ينبض بالحياة.

أدرك (من ـــ بتاح) أن الوصول لهذا المكان هو هدف (يوليسيس) منذ البداية، ربما يرغب في ســـرقته، ورغـــم أنه لا يزال يجهل طبيعة المكان، إلا أن ما رآه كان كافيًا ليؤكد شكوكه حول (يوليسيس) فقفز من موضعه وهو يقول بصوتٍ شامت:

"الآن ظهرت على حقيقتك أيها اليوناني الخائن، كم ستكون خيبة الكاهن الأكبر عندما يعرف أن الغريب الـــذي ائتمنه هو مجرد خائن وضيع."

استدار (يوليسيس) لمواجهة (من ـــ بتاح) ولكنه لم يبد خائفًا أو متفاجئًا أو مندهشًا على أقل تقدير، مما أصاب (من ـــ بتاح) بالحيرة، ثم قال (يوليسيس) بنبرةٍ باردة:

"يبدو أن هناك جرذانًا كثيرة في تلك المتاهة."

أغاظت سخريته (من ـــ بتاح) الذي صاح غاضبًا:

"بـــل الجرذ هو من يدنس موضع مقدس لـــــ (تحوت) وكهنته، أجبني على الفور، ما الذي تسعى إليه هنا؟"

تأمله (يوليسيس) لبضع لحظات بعينيه المظلمتين، ولوهلةٍ خاطفة أطل منهما غضب شديد وكراهية عميقة، قبل أن يختفيا ويحل محلهما نظراته الباردة التي أصابت (من ـــ بتاح) بالرهبة رغم يقينه بأنه في موضع القوة، ثم قال (يوليسيس) ساخرًا:

"ما أسعى إليه أكبر من قدرة عقلك الصغير على تصوره."

حاول (من ـــ بتاح) أن يواجه (يوليسيس) بنظرةٍ ساخرة متحدية مماثلة، وهو يقول:

"جربني."

صمت (يوليســـيس) للحظات مما أشعل الفضول في قلب الكاهن، وتعلقت عيناه بشفتي (يوليسيس) حتى انفرجتا وهو يقول:

"أسعى إلى الحصول على اللوح الزمردي."

سقطت الكلمات على (من ــ بتاح) كالصاعقة، وتذكر كل ما درسه عن اللوح الزمردي في مخطوطات الكهنة، هذا اللوح الذي كتبه (هرمس) وهو جالس على عرشه الذهبي في ساحق الزمان، إنه اللوح الذي يعطي لمن يقرأه مفاتيح الكون الثلاثة: الخيمياء، والسيمياء، والتنجيم، يعلم (من ــ بتاح) أن كهنة (تحوت) يحرسون هذا اللوح الزمردي لكنه لم يعرف أبدًا مكانه، فأنّى لهذا اليوناني أن يعرف ذلك؟!

معرفة اليوناني بشيءٍ لا يعرفه هو زادت من حسده وحقده تجاهه، فلم يعد يفكر في التخلص من (يوليسيس) فقط، بل في الحصول على اللوح الزمردي لنفسه، ارتسم في عقله مقدار القوة والسحر والحكمة التي سيحصل عليها بمجرد الحصول على اللوح الزمردي، يمكنه أن يصبح الكاهن الأكبر، بل يمكنه أن يصبح حاكم مصر كلها، ارتسم في مخيلته صورة مصر من جنوبها إلى شمالها تسجد تحت قدميه.

ارتجف (من ــ بتاح) رغمًا عنه، لكنه تمالك نفسه وقال:

"أين هو اللوح الزمردي؟ يجب أن تسلمه إليّ بصفتي أحد كهنة (تحوت)."

فقال له (يوليسيس) بسخريةٍ، وهو يعقد ذراعيه أمام صدره في تحدٍّ:

"تقدم وخذه."

التفت (من ــ بتاح) حوله، فلم يستطع رؤية أي لوحٍ زمردي، فقال بحنق:

"كفاك مناورة، هذه الابتسامة ستمحى من وجهك عندما يعلم الكاهن الأكبر بشأن خيانتك."

فجأة انقطعت كلمات (من ـــ بتاح) وهو يشعر بألمٍ شديدٍ يخترق صدره، فنظر لأسفل بعينين جاحظتين؛ ليجد سيفًا أسود مغروسًا في صدره ونصله يقطر دمًا، لم يكن (يوليسيس) يحمل سيفًا، فمن أين أتى به؟! ثم قال والدم يسيل من بين شفتيه:

"لماذا؟"

اقترب (يوليسيس) منه، وانتزع السيف من صدره بقسوةٍ وهو يقول:

"لقد أودى بك فضولك إلى حتفك."

وضع الكاهن يده على صدره الغارق بالدماء بألمٍ، وقال بغضبٍ شديد:

"أيها الخائن، لا تستهن بكهنة (تحوت)!"

ثم أمسك بقلادة مفتاح الحياة المعلقة حول عنقه بين كفيه لتشع بضوءٍ أبيض باهر، فتناثر السيف الذي يحمله (يوليسيس) وتحول إلى غبار، فقال (يوليسيس) وقد التمعت عيناه بحماس:

"يبدو أنك تملك بعض الألاعيب، أيها الكاهن."

في هذه اللحظة أخرج (يوليسيس) من بين طيات ملابسه قلادة يرتديها، كانت على شكل ساعةٍ رملية ذات جناحين مضمومين، فاتسعت عينا (من ـــ بتاح) في فزعٍ وهو يقول:

"مستحيل... أنت..."

فابتسم (يوليسيس) بسخريةٍ وقال:

"أجل، أنا مبعوث (مورفيوس)."

ثم أمسك (يوليسيس) ساعته الرملية بيديه، وبدأ ينشد وهو مغمض عينيه ترنيمة قديمة، قدم الكون ذاته، بلغةٍ سحيقة لم ينطقها لسان بشري من قبل، والساعة الرملية المتدلية من عنقه تتأرجح بقوةٍ أمام صدره، وهالة سوداء تحيط به وتغلف جسده، أمسك (من ـــ بتاح) الراكع على ركبتيه مفتاح الحياة بيده اليمنى، ومد يده اليسرى أمامه، فتشكل ضوء على شكل سلسلة، أحاطت بـ (يوليسيس) وقيدته، لكن (يوليسيس) تجاهلها واستمر في ترديد كلماته الغامضة، وفجأة اندفعت الهالة السوداء منه بعنف، وحطمت سلسلة الضوء المحيطة به، وغلفت المكان كله بظلامها الدامس، انتاب (من ـــ بتاح) الراكع على ركبتيه في الأرض هلعٌ شديد، ثم جحظت عيناه في رعبٍ عندما أدرك أن (يوليسيس) قد جذب روحه إلى البرزخ، وفي اللحظة التالية سمع صوت دوي هائل كانفجار الرعد يصاحب هبوط بوابة عليها رموز عجيبة شيطانية، فقال (يوليسيس) وقد التمعت عيناه ببريقٍ حاد:

"فات الأوان."

ثم رفع يديه في الهواء كعازف أوركسترا وهو يقول:

"فليتحرر الرعب."

انفتح الباب على مصراعيه بقوة، مطلقًا رياحًا شديدة، فوضع (من ـــ بتاح) يديه أمام وجهه، وهو لا يدرك ما الذي يدور حوله، فجأة

امتدت يـــد عملاقة مخلبية من الباب وأمســـكت الكاهن بقوة؛ قبل أن تجذب منه هيئة زرقاء تشـــبهه تمامًا، وتسحبها ناحية الباب ليبتلعها الظلام داخله، ثم انغلق الباب بقوة وارتفع مجددًا ناحية السماء.

انقشع الظلام ببطءٍ لتعود الحجرة للظهور من جديد، و(يوليسيس) ممسكًا بســـاعته الرملية بيديه وهو ينظر إلى جثة الكاهن، ثم استدار ليواجه تمثال (هرمس) ثم بدأ يتمتم ببعض الكلمات بتلك اللغة العتيقة، ومع انتهاء آخر حروف في كلماته انقسمت الأرض أسفل قدمي تمثال (هرمس) وظهر صندوق معدني يلمـــع كأن لم يمض عليه يوم واحد أسفل الأرض، ثم انفتح الصندوق ليظهر من داخله ضوء أخضر باهر فأغمض (يوليســـيس) عينيه لوهلة ثم فتحهما وابتسم وهو ينظر إلى لوحٍ من الزمرد الأخضر.

فجأة سمع صوتًا عميقًا يقول من ورائه:

"إذًا، فهذا هو هدفك منذ البداية؟"

التفت (يوليســـيس) فرأى الكاهن الأكبر (تـــوت ـــ حتب) واقفًا وراءه وهو يرتدي ملابس النوم وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ هو مزيج من الحزن والغضب، فقال له (يوليسيس) ساخرًا:

"تأخرت عن الحفل أيها العجوز!"

في تلك اللحظة رأى (توت ـــ حتب) قلادة الساعة الرملية المجنحة متدلية من عنق (يوليسيس) فقال:

"إذن أنـــت من هؤلاء الناس الذين يطلقون على أنفســـهم اســـم (النيكرومانتيا) ظننت أنهم قد اندثـــروا بعد القضاء على آخرهم في أثينا منذ سنواتٍ بعيدة."

شعر (يوليســـيس) بالغضب، وهو يذكر تلك المذبحة القديمة ثم صاح:

"أنت واهم أيها العجوز، نحن لســـنا في أثينا فقط، بل في أماكن عديدة في الأرض، ولن يتوقف النيكرومانتيا عن المحاولة حتى يعيدوا (مورفيوس) إلى العالم مرةً أخرى."

ارتجف (توت ـــــ حتب) عندما سمع هذا الاسم الموغل في القدم، وبدا كل شـــيءٍ واضحًا بالفعل في تلك اللحظة، فتقدم بخطواتٍ قوية تجاه (يوليسيس) وشرر البرق يتناثر حوله وهو يقول:

"لقد أحسست بطاقة الشـــر المتدفقة بداخلك عند مقدمك للمعبد، وســـمحت لك بالبقاء لمعرفـــة هدفك الحقيقي، لـــم أتخيل أن تكون واحدًا ممن يسعون لجلب تلك اللعنة إلى عالمنا، أنت عار على الجنس البشري."

تلاشى الغضب الســـابق من ملامح (يوليسيس) وحل محله بروده الظاهري السابق، وهو يقول متحديًا:

"إن كنت قد أحســـت بنواياي حقًّا، فلمَ ســـمحت لي بالبقاء في المعبد؟"

ارتسم الندم على ملامح الكاهن الأكبر وهو ينظر إلى جثة (من ـــ بتاح) قائلًا:

"لقد ظننت أنني أستطيع ترويض هذا الشر بداخلك وانتزاعه منك، أعترف أنك قد خدعتني، وقد دفع (من ـــ بتاح) المسكين الثمن."

ثم رفع عينيه وشـــررٌ أزرق كالبرق يتطاير منهما ويحيط بجسده وهو يقول بغضبٍ شديد أثار الرعب في نفس (يوليسيس):

"ولكنك تكون مخطئًا لو ظننت أنك تســـتطيع أن تفتح هذا الباب دون أن أشعر بك، وبعد أن انكشفت حقيقتك الآن أمامي، فإن الهرامسة ســـيتولون أمرك، ســـتدفع ثمن جرمك، وثمن قتلك للمسكين (من ـــ بتاح)."

مد (يوليســـيس) يده إلى ســـاعته الرملية، ولكن الكاهن الأكبر لم يمهله بل رفع يده إلـــى أعلى، وقال بصوتٍ عميق كأنه يأتي من أغوارٍ سحيقة:

"أونوريس حامل السماء، فلتعرني قوتك."

في هذه اللحظة؛ هبط لسان برق منفجرًا بدويٍّ هائل، وأحاط ضوؤه بجســـد الكاهن الأكبر، ثم تشـــكل ضوء البرق وراء ظهره على شكل جناحين من الشرر الأزرق، وقبل أن يستوعب (يوليسيس) ما حدث، قفز الكاهن الأكبر بقوةٍ ورشاقة لا تتناسب مع سنه نحوه فرفع يديه ليحمي وجهه، ثم أحس بقبضةٍ كالبرق تلطمه بقوة وتلقيه ليصطدم بالحائط في طرف الحجرة، فتحامل (يوليسيس) على نفسه كي يقف، ثم تجسد

في يده سـيفٌ أسود قبل أن يقفز نحو الكاهن الأكبر الذي أمسكه في الهواء بيده اليمنى، ثم قبض بيده اليسرى على السيف الأسود ليحطمه إلى قطعٍ متناثرة تلاشت في الهواء، ثم لكم (يوليسيس) بقوة ليرتطم بأحد التماثيل المجنحة ويحطمها، لم يستطع (يوليسيس) النهوض من بين الحطام، فقال والدماء تسيل من بين شفتيه:

"ماذا تكون؟ أنت لست بشريًّا!"

اختفى الضوء الأزرق من حول الكاهن الأكبر، واستعادت عيناه شكلهما الطبيعي، ثم أكمل وهو يحمل جثة (من ـــ بتاح) على كتفه:

"أنا الكاهن الأكبر لـ (تحوت).. لا تنس هذا أبدًا."

حاول (يوليسيس) الحركة لكنه شعر أن كل عضلة في جسمه تؤلمه، فاستسلم ليد الكاهن الأكبر وهو يجره وراءه مغادرًا الحجرة، وشاهد الصندوق المعدني ينغلق على اللوح الزمردي قبل أن يختفي الصندوق بدوره أسفل قدمي (هرمس).. بعدها ارتفع الباب الصخري من الأرض وانغلق وراءهما وهو يرج المكان ثم سكن تمامًا كأنه لم يفتح قط.

سار الكاهن الأكبر وسط المتاهة حتى عاد إلى سطح الأرض مرة أخرى، وبالمعبد كان الكهنة قد استيقظوا، ورأوا هذا المنظر المهيب؛ الكاهن الأكبر يخطوا خارج السرداب حاملًا جثة (من ـــ بتاح) وجسد (يوليسيس) فصاح الكاهن الأكبر آمرًا:

"أرسلوا في طلب الهرامسة على الفور."

ثم حمل (يوليسيس) إلى غرفته، وقال له:

"ستبقى هنا حتى يأتي الهرامسة من الإسكندرية، لا تحاول الهرب، فسأحرص بنفسي على ألا تستطيع الهرب من هنا أبدًا."

بعد أن خرج (توت ـ حتب) من الغرفة، تمتم بعض الطلاسم القديمة، فارتسم مفتاح الحياة على باب الغرفة؛ قبل أن يختفي مرةً أخرى، أخذ (يوليسيس) يطرق الباب في عنفٍ ويأسٍ محاولًا فتحه لكنه أحس بسحر الكاهن الأكبر يحيط الغرفة، سحر أقوى من سحره، لا يستطيع الفكاك منه، لقد اقترب كثيرًا من هدفه ثم ضاع كل شيء!

وفي ذروة يأسه قرر (يوليسيس) أن يفعل طقسًا مخيفًا، لم يلجأ إليه أحد من أسلافه، فانتزع الساعة الرملية من حول عنقه وهو يقول:

"لن أفقد كل شيءٍ وصلت إليه بسهولة، يجب أن أبقى في هذا العالم."

عند الفجر وصل الهرامسة من الإسكندرية، وتوجهوا إلى الغرفة المحتجز بها (يوليسيس) وكان أول ما وقع نظرهم عليه هو جثة (يوليسيس) ميتًا، وبجسده جروح ونقوش عديدة، والساعة الرملية ملقاة بجانبه، وقد تحولت رمالها الصفراء، إلى رمالٍ حمراء مخيفة.

الفصل الخامس

هومنكلوس

استقل الرجال الثلاثة المصعد من الطابق الثالث حيث يقع مكتب (مصطفى) حتى الطابق الأرضي حيث توجد الساعة الرملية، ترجل (مصطفى) من المصعد يتبعه ضيفاه، وساروا عبر أحد الممرات حتى وصلوا إلى بابٍ يقف أمامه حارس أمن، تبادل معه (مصطفى) بعض الكلمات قبل أن يومئ الحارس برأسه متفهمًا ويفتح الباب؛ وما أن عبروا منه حتى وجدوا أنفسهم في غرفةٍ بها العديد من القطع الأثرية الأصلية المحفوظة في هذا المكان الآمن، وقف ثلاثتهم أمام الصندوق الزجاجي و(مصطفى) يقول لهما:

"ها هي الساعة الرملية."

لفهم الصمت لبضع لحظات وهم يقفون أمام الساعة الرملية المجنحة، أخذ (باسم) يتأمل النقوش الغريبة الملتوية، والجناحين المنحوتين بدقة حتى شعر أنهما سينتفضان ويحلقان في أي لحظة، فتمنى لو أنه قد أتى بالكاميرا الخاصة به معه لالتقاط المزيد من الصور لهذه التحفة العجيبة، فجأة ارتج المكان مع صوت انفجارٍ

كبير، فنظر الثلاثة حولهم ليتبينوا ما يحدث قبل أن يسرع (مصطفى) نحو الباب ويفتحه، وهو يسأل الحارس الواقف أمام الباب:

"ما الذي يحدث؟"

فأجابه الحارس في فزع:

"لا أعرف."

ثم ارتج المكان مع دوي انفجارٍ آخر، قبل أن يروا حارسين آخرين يسرعان ناحيتهم، وأحدهم يقول لـــــ (مصطفى) ومن خلفه (باسم) و(ريتشارد):

"أسرعوا إلى باب خروج الطوارئ، فقد صدر أمر بإخلاء المبنى."

كان هناك صـــوت طلقات نارية متواصلة، وأصوات صراخ مفزعة، مما زاد من حدة التوتر بينما بدا (ريتشارد) الوحيد الهادئ بينهم وهو يقول:

"لا يمكن أن نسمح ببقاء الساعة هنا."

فقال له (باسم) بجزع:

"يجب أن نفكر في إنقاذ أنفسنا أولًا."

في هذه اللحظة ســـمعوا انفجارًا قريبًا منهم للغاية، وتناثر الغبار والدخان في كل مكان؛ قبل أن يظهر (رســـتم) بجسده الضخم وهو يحمل على كتفـــه مدفع بازوكا، وخلفه (إينور) بقامتها القصيرة التي

بدت متناقضة مع قامة (رســـتم) العملاقـــة، وقد وضعت كحلًا كثيفًا حول عينيها، وارتدت فستانًا أسودَ قصيرًا فوق ركبتيها بقليل، وقالت بصوتٍ ساخر:

"مرحبًا، هل قاطعت حفلتكم الصغيرة؟"

ولكن ملامحها تغيرت فجأة عندما رأت (ريتشارد) وقالت:

"أنت؟!"

فقال لها (ريتشارد):

"مفاجأة أليس كذلك؟"

لـــم يبد على أحد غيرهم أنه يفهم ما يجـــري حوله، فتوترت أيدي الحراس على الأسلحة، وصرخ أحدهم بصوتٍ عصبي:

"ما الذي يجري؟"

نظرت له (إينور) ببرودٍ قبل أن تقول:

"تخلص منهم يا (رستم)."

فقال الحارس في فزعٍ، وهو يرفع سلاحه:

"لا تتحرك، سأطلق النار."

بدا على (رســـتم) أنه لم يسمعه وهو يتقدم للأمام، فضغط الرجل على زناد المدفع الرشاش الذي يمسكه بيده، فاندفعت منه الرصاصات تخترق جسد (رستم) والذي وقف مكانه حتى انتهت خزانة الرصاص، وهم ينظرون إلى (رســـتم) منتظرين أن يســـقط على الأرض؛ لكن

جروحه التأمت بسرعةٍ عجيبة وهو يزمجر قبل أن يلقي مدفع البازوكا بكل ثقله ليرتطم برأس الرجل الذي أطلق النار فيهشمها تمامًا، فقال (ريتشارد):

"مستحيل، أهذا..."

فقاطعته (إينور) وهي تقلده بسخرية:

"مفاجأة أليس كذلك؟"

فأكمل وهو يجز على أسنانه:

"هومنكلوس!"

هنا فقد أحد الحارسين الآخرين أعصابه، فبدأ يطلق النار وهو يصرخ:

"مت، عليك اللعنة!"

في اللحظة التالية، وجد (رستم) أمامه وهو يرفع يده في الهواء قبل أن يلكمه في وجهه بقوة، فتطايرت رأسه من فوق عنقه ثم التفت إلى الرجل الثالث الذي ألقى سلاحه على الأرض، وهو يقول:

"لا تقتلني أرجوك."

لكن (رستم) تقدم منه بخطواتٍ بطيئة، وهو ينظر في عينيه بنظراتٍ جامدة مخيفة، قبل أن يمسك رأسه بيده ويضغط عليها بقوة وهو يصرخ في ألمٍ ورعبٍ حتى انسحقت الجمجمة في يده وتناثرت

بقايا المخ في كل مكان، في هذه اللحظة قال (ريتشارد) لـ (مصطفى) الذي وقف مفزوعًا، وقد ألجمه ما يحدث حوله:

"أخرج الساعة... يجب أن نحمي الساعة."

سمعت (إينور) ذلك، فقالت لـ (رستم) صارخة:

"أحضر لي الساعة الرملية."

تقدم (رستم) ناحيتهم وهو يزمجر، فتحرك (باسم) الذي وقف صامتًا منذ بداية الأحداث، ووقف بين (رستم) وبين (مصطفى) و(ريتشارد) وقد رفع ذراعيه جانبًا وهو يقول لهما:

"اهربا بحياتكما الآن."

لطمه (رستم) بظهر يده، فطار بضعة أمتار في الهواء قبل أن يسقط على الصندوق الزجاجي ليحطمه، فارتفع دوي الإنذار الحاد في كل مكان، وقد اخترقت شظايا الصندوق الزجاجي جسده، وسالت دماؤه على الساعة الرملية، فصاحت (إينور) في (رستم) بحنق:

"ماذا فعلت أيها الأحمق؟"

بدت إصابات (باسم) خطيرة، وأحس بشظية زجاج كبيرة تخترق صدره بالقرب من قلبه؛ سمع أصواتًا تهمس في أذنه والدنيا تظلم من حوله، قبل أن يغيب عن الوعي.

استغل (ريتشارد) تشتت انتباه (إينور) اللحظي وهي تصرخ في (رستم) ليتسلل إلى جثة أحد الحراس وينتزع منها مسدسًا صغيرًا، ثم أطلق رصاصة ناحية الفتاة.

لكن (رستم) تحرك بسرعةٍ لا تتناسب مع جسده الضخم، ليعترض طريق الرصاصة بجســـده الذي التأم فـــور تلقيه الرصاصة، فصوب (ريتشارد) نحوه عدة طلقات، فقالت الفتاة ساخرة:

"تعرف أن هذا بلا فائدة، فهو لن يموت."

لكن رصاصتين منهما اخترقتا عينيه، فبدا عليه الألم لأول مرة، وهو يقول بصوتٍ أجش:

"مؤلم."

فقال (ريتشارد) لـــــ (مصطفى):

"أسرع، يجب أن نحمل (باسم) ونخرج من هنا."

وبينما يحاول (مصطفى) حمل (باســـم) الفاقد الوعي، صرخت (إينور):

"لن يذهب أحد إلى أي مكان."

لم تلتئم عينا (رســـتم) بعد، فتتبع الأصوات وهو يلوح بيديه حوله محاولًا أن يصيبهما، و(ريتشـــارد) يتحاشاه برشاقة، لكن إحدى يديه ارتطمت بـــــ (مصطفى) فدفعته للخلف لترتطم رأســـه بالحائط ويسقط على الأرض فاقدًا الوعي، فصاح (ريتشارد):

"اللعنة!"

شعر (ريتشارد) بغضبٍ شديد، فمد يده ناحية عنقه ليخرج المفتاح الفضي ويضمه بين كفيه، ثم أغمض عينيه وهو يهمس بكلماتٍ غامضة

تردد صداها في المكان والهواء يتغير من حولهم وشعروا بثقله كأنه يتحول إلى شيءٍ مادي، شعرت (إينور) بالفزع فالتفتت إلى (رستم) الذي استعاد نظره أخيرًا وصاحت به:

"يجب أن توقفه!"

حاول (رستم) أن يقترب من (ريتشارد) لكنه شعر بقوةٍ شديدة خفية تدفعه للخلف، ثم تكونت دوامة من الضوء حول (ريتشارد) ملأت المكان بضيائها، ثم بدأت تتلاشى بالتدريج تاركة دائرة من الرموز المضيئة مرتسمة على الأرض، بمنتصفها يقف (ريتشارد) ممسكًا بسيفٍ من ضوء، ترتسم عليه نقوش لامعة وجناحان من الضوء يتشكلان وراء ظهره ثم فتح عينيه المنيرتين بضوءٍ باهر ليقول بصوتٍ عميق كأنه يأتي من أغوارٍ سحيقة:

"أنا مبعوث (إلكسيوس) جئت أقتلع دنسكم من على الأرض!"

اقترب (رستم) من (ريتشارد) وهو يصرخ، فاستقبله (ريتشارد) بضربةٍ حادةٍ دقيقة من سيفه، ليصيبه بجرحٍ عميق في صدره، فتراجع (رستم) بضع خطوات للخلف، منتظرًا أن يلتئم جرحه كي يهجم على (ريتشارد) مرة أخرى، ولكن الجرح لم يلتئم سريعًا هذه المرة، وارتسمت على ملامحه حيرةٌ ممتزجةٌ بالغباء، فعاجله (ريتشارد) بضربةٍ أخرى مستغلًّا حيرته ليقطع ذراعه، رأت (إينور) بفزع الدماء تتدفق من جرح (رستم) وموضع ذراعه المبتور، وأدركت أن المعركة تتجه إلى خسارتهم، فاستلت خنجرًا صغيرًا حادًّا من طيات ملابسها

وجرحت باطن يدها، وبإبهامها استخدمت دماءها في رسم دائرةٍ على الأرض، وهي تصيح:

"إليّ يا (رستم)."

تراجع (رستم) بقفزةٍ سريعة إلى الخلف ليقف بجوارها، وهي تضع باطن يدها المجروح في قلب الدائرة الدامية، فقفز (ريتشارد) بجناحيه ناحيتهما مشهرًا سيفه لكنه شعر بحاجزٍ خفي يدفعه بقوة للوراء، بحث بعينيه المنيرتين عن الساعة الرملية، فوجدها لا تزال في موضع سقوط (باسم) ملوثة بدمائه، ثم نظر إلى (مصطفى) فوجده وراء الحاجز ناحية الفتاة التي أشارت إلى جسده المسجى على الأرض، وهي تقول لـ (رستم):

"أحضره معنا."

حمل (رستم) جسد (مصطفى) بيده الوحيدة على كتفه، ثم تبع الفتاة التي ركضت بخطواتٍ سريعة لتغادر، وفي هذه اللحظة بدأت الدائرة الضوئية تتلاشي من على الأرض، وفي الوقت نفسه اختفى الجناحان والسيف من يد (ريتشارد) واختفى الضوء من عينيه، فوقف وهو يلهث لأنه قد استهلك الكثير من الطاقة ولم يعد لديه ما يكفي لمطاردة (إينور) و(رستم) فالتفت إلى جسد (باسم) الذي فقد الكثير من الدماء وحمله بما تبقى من قوته على كتفه، ممسكًا الساعة بيده الأخرى وأسرع مغادرًا المكان تاركًا خلفه مذبحة الدماء والحطام

المتناثرة في كل مكان، ومن بعيد ترددت أصوات صافرات الشـــرطة التي وصلت إلى المكان بعد فوات الأوان.

***

اشتعلت ملامح (ســـليم) بالغضب، وهو ينظر ناحية (إينور) التي وقفت أمامه منكمشة في خوف، أما (مراد) فقد لاذ بالصمت وهو يشعر بالهالة المخيفة تتدفق من (سليم) وتضغط على صدره؛ فغضب سيده كان عظيمًا بســـبب فعلة (إينور) كان يوبخها بشدة وهي مطرقة وقد احمرتا وجنتيها في مزيجٍ من الغضب والخوف، وصاح فيها (سليم):

"لقد قلت بوضوحٍ أن (مراد) من ســـيتولى الأمر، لمَ تصرفتِ من نفســـك؟ وما الذي كان يدور بعقلك عندما كـــدتِ أن تدمري المبنى والساعة بداخله؟"

فقالت (إينور) بحدة مدافعة عن نفسها:

"كنت أود أن أثبت لك أنني أستطيع فعل ذلك، أنني..."

قاطعها (سليم) بغضب:

"بل لم يكن لكِ هدف سوى الاستعراض، وبالنهاية فشلتِ حتى في إحضار الساعة."

كانت تستمع إليه وهي تقضم أظافرها بعصبيةٍ ثم قالت:

"لقد كان هناك هذا الخيميائي الذي أفســـد الأمر، هذا الاسكتلندي المتغطرس الذي يخدم الهرامسة."

عقد (سليم) حاجبيه، وهو يتساءل:

"(ريتشارد)؟"

فقالت (إينور):

"إنه ليس خيميائيًّا عاديًّا يا أبي، لقد استطاع التغلب على (رستم)."

ازداد غضب (سليم) وهو يقول:

"ألم أخبرك أن الخيميائيين سيرسلون أقوى رجالهم وراء الساعة؟ لن أتفاجأ بوجود (ريتشارد) أو الهرامسة أنفسهم في مصر."

ثم ضرب المكتب أمامه بقوة، فشطره إلى نصفين وهو يقول:

"سأجعلهم يندمون على هذا."

تراجعت (إينور) للوراء بقفزةٍ خفيفة متحاشية أثر ضربة أبيها، وظلت صامتة لكنه لم يضف شيئًا فأدركت أنه قد أنهى حديثه، استدارت على عقبيها منصرفة في غضب، متجهة ناحية قبو القصر وهي تفكر في خطتها التالية، فريستها التي أمسكت بها، عالم الآثار وصديق (باسم) الصحفي، كانت تحتفظ به في سردابٍ ضيق عطن بقبو القصر.

فتحت باب السرداب ببطء، فسمعت صوتًا واهنًا متألمًا يقول:

"من أنتم؟ ماذا تريدون؟"

لكنها تجاهلت سؤاله وهي تشـــعل بعض الشموع بقداحة ذهبية صغيرة، فألقى ضوء الشموع على ملامحها ظلالًا مخيفة، وهي تقترب من (مصطفى) وتقول بابتسامةٍ ساخرة:

"يبدو أنك استعدت وعيك أخيرًا."

ميز (مصطفى) على ضوء الشموع وجه الفتاة التي هجمت عليهم، فقال بتعجب:

"أنتِ؟"

مدت يدها للأمام كأنها تصافحه وقالت:

"أعتذر لوقاحتي، يبدو أنني لم أعرفك بنفسي، أنا (إينور).. (إينور سليم)."

نظر إلى يدها الممدودة، فأدرك أنها تســـخر منه وتعبث بأعصابه، فتمالك نفسه وقال لها متصنعًا البرود:

"كنت أتمنى أن أصافحك، لكن يدي مقيدة كما ترين، ربما لو أزلتِ القيد لاستطعت أن أصافحك."

سحبت يدها وهي تشـــعر بالغيظ من رد فعله الساخر، وقالت له وهي تركل الأرض بقدمها:

"يجب أن تعلم أن ما يبقيك حيًّا هو حاجتنا إلى الساعة الرملية."

تنبهت حواس (مصطفى) عندما سمعها تذكر الساعة، ففتح عينيه وهو يقول بدهشة:

"إذن هذا هو سبب هجومكم على مبنى الأبحاث؟"

فقالت له (إينور) وهي تصفق بيديها، وقد استعادت عبثها الطفولي:

"بالطبع هذا هو السبب."

ثم مالت عليه مرة أخري وهي تقول:

"أراهن أن الفضول يقتلك الآن."

شعر بالضيق من محاولتها العبث به فلم يجبها، فقالت له:

"ما علاقتك بهذا الخيميائي، ولماذا كان متواجدًا معكما؟"

فنظر إليها بحيرةٍ حقيقية، وتساءل:

"خيميائي؟ ماذا تعنين؟"

صمتت لحظات وهي تنظر في عينيه ببرودٍ قبل أن تقول:

"أنت لا تحاول أن تعبث معي، أليس كذلك؟"

فقال لها بنبرةٍ صادقة:

"أنا لا أعرف عما تتحدثين."

فقالت له:

"حسنًا سأغير سؤالي، ما علاقتك بـــــ (ريتشارد)؟"

فسألها بتحدٍّ:

"ولماذا يجب عليّ أن أجيب على سؤالك؟"

أخرجت من بين طيات ملابسها خنجرًا حادًّا صغيرًا، وهي تقول له:

"ربما يجب عليّ أن أقطع إصبعًا أو أذنًا كي تجيب عن أسئلتي."

ثم أردفت بابتسامةٍ وحشية تتناقض مع ملامحها الناعمة:

"صدقني سأستمتع بهذا."

ابتلع (مصطفى) ريقه قبل أن يقول لها:

"لم ألتق بـــ (ريتشـــارد) إلا اليوم، عن طريق صديقي (باسم) وأخبرني أنه مهتم بالساعة، هذا كل شيء."

وضعت (إينور) طرف الخنجر الحـــاد على خده، وجرحته جرحًا صغيرًا في وجهه وهي تقول:

"هل تعتقد أنهم قد يستبدلون حياتك بالساعة، أم أنك بالنسبة لهم بلا قيمة؟"

ثم لعقت الدماء من على الخنجر باســـتمتاع، و(مصطفى) يشعر برعبٍ شـــديد، وفجأة فتح الباب بدويٍّ عالٍ، فنظرت (إينور) للخلف لتجد (مراد) يخطو إلى الداخل ويضيء الأنوار الســـاطعة للمصابيح الكهربائية:

"فلتكفي عن عبثك الطفولي هذا! الأمر جاد وخطير."

فقالت له (إينور) باستياء:

"فلتظهر بعض الاحترام لسيدتك يا (مراد)."

اقترب (مراد) من (إينور) وقال لها بصرامة:

"بل أنتِ التي يجب أن تظهـــري الاحترام لعملنا أيتها الطفلة، بعد إفســـاد مهمة إحضار الســـاعة وجذب الأنظار إلى ما يحدث مهددة بكشفنا وتعريضنا جميعًا للخطر."

احمر وجه (إينور) في غضبٍ شديدٍ وهي تقول:

"يستطيع أن يســـتغل نفوذه من خلال وسائل الإعلام ليبدو الأمر كعملٍ إرهابيٍّ عادي."

قاطعها (مراد) دون أن تخف حدة غضبه:

"(ســـليم) لن يكون موجود دائمًا لمعالجة أخطائك يا فتاة، ويجب عليكِ أن تنضجي وتتوقفي عن العبث في كل مكان."

شعر (مصطفى) أن الهواء ثقيل ويضغط على أنفاسه، بينما عينا (مراد) تلمعان بالغضب قبل أن يتمالك نفسه ويأخذ نفسًا عميقًا، وهو يقول:

"للأسف فإن (سليم) ليس له وريث غيرك."

هنا قالت (إينور) وهي تركض ناحية الباب:

"سأخبر أبي بما حدث."

نظر (مراد) ناحيتها، وعلى وجهه خيبة الأمل قبل أن يتنهد ويقول:

"لن تكبر أبدًا."

ثم نظر إلى (مصطفى) وهو يقول ببرود:

"والآن، ماذا لدينا هنا؟"

الفصل السادس

الساعة المجنحة

شعر (باسم) بروحه تندفع بسرعة، وكأن قوة رهيبة تقوم بسحبها في الفراغ اللا متناهـــي، كان متعبًا ويريد أن ينـــام، أن يغلق عينيه ويستسلم للسكون، وفجأة امتلأ الفراغ بصورٍ متعددة لأناسٍ يرتدون ملابس ســـوداء غريبة، شـــعر بالألفة نحوهم لكن سرعان ما اختفت الصورة فجأة، وظهر بدلًا منها صورة جثث متراصة في ساحةٍ واسعة، شعر بالغضب وملأ الحقد قلبه.

شـــعر بالظلام يتدفق في عروقه وخلاياه، وجـــوه متعددة تظهر وتختفي، كان هناك هدف واحد في حياته يســـعى إليه، إنه الآن يسير في طريقٍ طويلٍ يبدو بلا نهاية وقد شعر بالتعب.

أصبح على ظهر مركب تشق طريقها عبر نهرٍ طويل، وجوه سمراء حوله لم يرها من قبل لكنها بدت مألوفة له، إنه يسير في شوارع مدينة مصرية قديمة ثم تبدل المشهد من حوله، ليجد نفسه يسير في مبنى قديم وراء رجلٍ يرتدي جلد نمر، ومن ثم أصبح يسير في مكانٍ مظلم

أســـفل الأرض وهو يحمل في يده مشـــعلًا، الدماء تسيل أمام عينيه! تنسكب في كل مكان، الآن أصبح قوة لا يستطيع أحد أن يقف أمامها.

همس صـــوت في أذنه كالفحيح؛ (مورفيوس)... (إلكســـيوس)... (يوليسيس)... (ماجنُم أوبُس)... شعر بالصوت يتردد في عقله ويخترق خلاياه، فشعر بألمٍ شـــديد يصرخ بصوتٍ مكتوم لا يسمعه أحد سواه! الألم يزيد كأنه طنين مستمر في عقله، والصوت لا يتوقف عن الهمس.

شـــعر بالظلام يحيط به؛ ظلام شـــديد قاتم في كل ناحية، وفجأة ظهرت ســـاعة رملية مجنحة في قلب الظلمة ثم تغير شكلها لتصبح لها هيئة بشرية، نسخة منه تشبهه، (باسم) آخر، لكن يبدو عليه الشر وترتسم على شفتيه ابتســـامة ساخرة، ارتفع صوت الهمس والفحيح يتردد في عقله، وأحس (باســـم) بألمٍ شديد في رأسه فأمسكها بكفيه وهو يصرخ، وفجأة ظهر (ريتشارد) بجناحين من ضوءٍ أبيض ساطع ينير الظلمة، ورآه يشير بيده ناحية نسخته الخبيثة فخرج من أصابعه خيوطًـــا من الضوء أحاطت بها وحاصرتها، وفجأة هبط من الســـماء بوابة عليها نقش صولجان بجناحين يلتف حوله ثعبانان على بعضهما البعض، أدرك (باســـم) بشـــكلٍ غامض أن هذا ما يسمى بصولجان (هرمس) فلم يدرك من أيـــن جاءته تلك المعرفة، ورأى خيوط الضوء تجذب نسخته الخبيثة وراء الباب الذي انغلق عليها بعنف، ثم احتضن (ريتشارد) (باســـمًا) وهو يحيطه بجناحيه، فانقشع الظلام وانتفض (باسم) وهو يفتح عينيه، ليجد (ريتشارد) ينظر إليه بقلق ويقول له:

"هل أنت بخير؟"

حاول أن يعتدل في موضعه، فشعر بألمٍ شديد في صدره، مد يده يتحسس موضع الألم، فوجد أن صدره محاط بالضمادات ثم مد له (ريتشارد) يده بإناءٍ صغير وهو يقول له:

"اشرب هذا."

شعر (باسم) أنه في وضعٍ غير مناسب لرفض أي شيء، ففتح فاه مستسلمًا و(ريتشارد) يصب هذا السائل في فمه، ثم أغمض عينيه ليغيب عن الوعي مرة أخرى.

تأمله (ريتشارد) قليلًا حتى تأكد أنه قد غرق في النوم، ثم سار ناحية مكتبٍ خشبيٍّ موضوع عليه الساعة الرملية وعدد من الكتب المتكومة فوق بعضها البعض، وكتاب مفتوح على صفحتين بهما بعض الرسوم والرموز والكلمات المكتوبة باللغة اليونانية القديمة، فجلس أمامه وأخذ يقلب صفحات الكتاب بحيرةٍ واهتمام، ثم أشعل سيجارةً وبدأ ينفس دخانها في توتر.

فجأة سمع صوت طرقاتٍ خفيفة على الباب، جعله ينتبه ويقول:

"ادخلي يا (مارية)."

هنا دخلت الغرفة فتاة شابة تبدو في العشرينات من عمرها، وقد انسدل شعرها الكستنائي على وجهها ذي البشرة الخمرية، أما عيناها فكانتا ذات لونٍ أزرق داكن جميل، وبمجرد دخولها قالت بلهجةٍ مشفقة:

"أنت ما زلت منهمكًا في أمر هذه الساعة؟ لقد تأخر الوقت."

ثم نظرت ناحية السرير الموجود بالغرفة، وقالت:

"ألم يستيقظ بعد؟"

فقال لها وهو يتثاءب:

"لقد استيقظ لحظات قليلة ثم عاد إلى النوم."

فقالت له وهي تبتسم:

"يبدو أنك تحتاج إلى النوم أيضًا."

فقال (ريتشارد) وهو يضغط على عينيه بيده كأنه يطرد النوم:

"هناك شيء ما غير مريح في هذا الأمر."

فسألته باهتمام:

"ماذا تقصد؟"

قال لها وهو يقلب صفحات الكتاب:

"لا أعرف سبب سعي النيكرومانسر المحموم وراء تلك الساعة الرملية، كما أن تلك النقوش الحمراء على إطار الساعة لا تشبه أي لغةٍ معروفة."

تأملت (مارية) الساعة باهتمام، كانت النقوش الحمراء غريبة حقًّا، ولسببٍ غامض أثارت القشعريرة في نفسها فأبعدت ناظريها عنها، و(ريتشارد) يكمل:

"الغريب أيضًا أنه وسط الفوضى التي حدثت لم تصب الساعة بخدشٍ واحد، رغم تحطم الصندوق الذي كانت بداخله تمامًا."

ثم صمت قليلًا قبل أن يقول:

"أتساءل لو أن..."

لم يكمل جملته بل اعتدل واقفًا وسار نحو منضدةٍ قريبة منه موضوع عليها قوارير زجاجية وبعض الأدوات، فأخذ يفتش بينها حتى عثر على مطرقة أمسكها بيده كأنه يختبر وزنها ثم عاد إلى الساعة الزجاجية ورفع المطرقة لأعلى، فقالت له وهي تمسك يده لتمنعه:

"ماذا تفعل؟"

فأبعد يدها برفقٍ وقال:

"سأجرب شيئًا."

ثم هوى بالمطرقة على الساعة الزجاجية وسمعت صوت رنينٍ حاد ولكن الساعة ظلت سليمة، ففغرت فاها في دهشة بينما عقد (ريتشارد) حاجبيه، وقال:

"كنت متأكد، هذه الساعة محمية بسحرٍ قوي."

ثم نظر ناحية (باسم) وهو يقول:

"هناك أمر غريب، وهو الأغرب على الإطلاق."

فسألته:

"وما هو؟"

فقال لها، وهو يمر بيده على غلاف الكتاب:

"عندما أصيب (باسم) واخترقت شظايا الزجاج جسده، سقط على الساعة الرملية وسالت دماؤه لتلوثها لكن عندما وصلت إلى هنا وبدأت بفحص الساعة؛ لم أجد أثرًا لتلك الدماء على الإطلاق."

قالت (مارية) بقلق:

"ماذا يعني هذا؟"

فصمت (ريتشارد) مفكرًا، ثم قال:

"لا أعرف، ولكن كل سحر النيكرومانسر متعلق بشكلٍ ما بالدماء مما يثير قلقي."

فقالت له (مارية) بحيرة:

"وماذا علينا فعله؟"

فقال (ريتشارد) وهو يقطب جبينه:

"علينا مراقبة الفتى جيدًا، أخشى أن يكون في خطر."

وضعت (مارية) يدها على فمها في خوف، أما (ريتشارد) فقد أطفأ سيجارته وهو يقول بجدية:

"ربما عليّ استشارة (الهرامسة) في هذا الأمر."

وهنا أدركت (مارية) أن الأمر خطيرٌ حقًّا.

الفصل السابع

تاريخٌ خفي

جلس (ريتشـــارد) مربعًا قدميه، عاري الجذع في قلب ظلمةٍ دامسة لا متناهية، لا ينيرها إلا نجـــوم بعيدة، فبدا كأنه يجلس في قلب الكون نفسه، وحوله من مختلف الجهات ارتسمت من ضوءٍ باهت هيئة سبعة رجال بالغي الضخامة تختبئ ملامحهم في الظلمة، كأنهم آلهة من أزمانٍ عتيقة، وأحدهم يقول بصوتٍ عميق كأنه يأتي من أغوار الكون السحيقة:

"ما الأمر يا (ريتشارد)؟"

صمت (ريتشارد) لبضع لحظات ثم قال:

"لقد حصلت على الساعة الرملية لكن الأمر غامضٌ ويحتاج للمزيد من التحقيق، فهو لا يشبه أساليب النيكرومانسر المعتادة."

قال صاحب الصوت العميق:

"الأمر يقع على عاتقك الآن يا (ريتشـــارد).. عليك أن تتعاون مع الخيميائيين في مصر لحل هذا الأمر؛ أم أن الأمر يحتاج لتدخل المجلس بنفسه؟"

فقال (ريتشارد):

"لا أرى سـبـبًا يستدعي هذا حتى الآن، لكنني أرغب في الإذن بضم خيميائيٍّ جديد إلى صفوفنا."

فقال واحدٌ من السبعة الآخرين بصوتٍ عميقٍ مماثل:

"ومن هو؟"

فصمت (ريتشارد) لحظات ثم قال:

"الصحفي (باسم)."

فسأله آخر:

"وما السبب الذي يدعوك لهذا؟"

فقال (ريتشارد):

"لقد اختلطت دماء (باسـم) بتلك السـاعة، ومنذ ذلك الوقت وأنا أشـعر بأنه يصارع شيئًا في أعماقه ربما يكون شرًّا قديمًا أو سحرًا لا نعرف كنهه بعد، والطريقة الوحيدة التي يمكننا بها ردع هذا الشر، هي أن يردعه (باسم) بنفسه كخيميائي."

ساد الصمت بضع لحظات كأن الرجال السبعة يتبادلون الأفكار، ثم قال صاحب الصوت الأول:

"حسنًا فلتتولَّ الأمر يا (ريتشارد) ولكن الأولوية هي معرفة سبب سعي النيكرومانسر وراء الساعة الرملية وإحباط أي خطةٍ لهم."

أومأ (ريتشارد) برأسه، وقال باحترام:

"سمعًا وطاعة."

وفي هذه اللحظة، انقشع الظلام واختفت النجوم والرجال السبعة بهيئاتهم الهائلة، وأصبح (ريتشارد) جالسًا على الأرض وحيدًا، فاعتدل واقفًا وارتدى ســـترته، ثم خرج من الغرفة ليجـــد (مارية) بانتظاره واللهفة مرتسمة على وجهها، فبادرها سائلًا:

"هل أفاق (باسم)؟"

فقالت له:

"لا أعرف، سأذهب لتفقده."

أمسك (ريتشارد) بكتفها وقال:

"لا عليكِ، سأذهب أنا لتفقده."

ثم ســـار متوجهًا ناحية الغرفة الموجود بها (باســـم) وما أن فتح الباب حتى رآه معتدلًا في رقدته، يحدق بعينيه نحو الفراغ، فقال له:

"إذن فقد اســـتيقظت أخيرًا، أتمنى أن تكون حرارتك قد انخفضت أخيرًا."

ثم اقترب منه ليضع يده على جبهته من أجل تحسس حرارته لكنه بمجرد أن لمس جبهته، أحس (باســـم) بصوتٍ كالفحيح يهمس في أذنه:

"(إلكسيوس)."

فانتفض فـــي حركةٍ حادة كأنـــه يفيق من حلمٍ عميق، فســـأله (ريتشارد) مندهشًا:

"ما بك؟"

صمت (باســـم) لبضع لحظات وهو يتأمل الغرفة من حوله، كان هناك مكتبة ضخمـــة تغطي جدارًا كاملًا في المـــكان، وأكثر الكتب التي بها يبدو عليها القدم، وفي أحـــد الأركان يوجد منضدة عليها ما يشبه أنابيب الاختبار، والقوارير الزجاجية التي امتلأت بسوائل بألوانٍ مختلفة، فسأله:

"أين أنا؟"

فقال له (ريتشارد) وهو يبتسم:

"اطمئن، إننا في منزل أحد الأصدقاء، أنت في أمانٍ هنا."

فقال له (باسم) بحدة:

"لا أســـتطيع أن أطلق على أحدٍ كلمـــة صديق حتى أفهم، ما الذي حدث."

بدا على ملامح (ريتشارد) هدوءٌ متفهم، ثم جلس بجواره على حافة السرير، وقال:

"ما يحدث هو أن أشـــخاصًا آخرين يبحثون عن الساعة الرملية، ويســـعون للحصول عليها بأي ثمن، حتى وإن قتلوا كل من يقف في طريقهم."

فصاح (باسم) وكأنه تذكر فجأة:

"(مصطفى).. ما الذي حدث للدكتور (مصطفى)؟"

قبل أن يرد (ريتشارد) سمع طرقًا رقيقًا على الباب، ثم فتح ببطءٍ ودخلت (مارية) إلى الغرفة، وابتسمت عندما رأت (باسمًا) مستيقظًا، وقالت له باللغة العربية بلهجةٍ مصرية:

"حمدًا لله على سلامتك."

نظر (باسم) مشـــدوهًا إلى هذا الوجه الملائكي الذي طل عليهما، وقال له (ريتشارد):

"هذه (مارية).. وإليها يعود الفضل في إنقاذك."

احمرتا وجنتا (مارية) من الخجل، وهي تقول:

"لم أفعل إلا ما كان يجب عليّ فعله."

صمت (باسم) وشعر أن كل ما يدور حوله غريب غاية الغرابة، ثم قال:

"أريد أن أفهم ما الذي يـــدور حولي؟ وأين (مصطفى)؟ وما الذي حدث له؟"

صمت (ريتشارد) بضع لحظات مما أثار توتر (باسم) قبل أن يقول:

"لقد أصيب إصابة بسيطة، هو بخيرٍ الآن على الأرجح."

سأله (باسم) بحيرة:

"ماذا تعني بـــــ (على الأرجح)؟"

فأجابه (ريتشارد) بأسف:

"لقد سقط (مصطفى) فاقدًا الوعي في المعركة ووقع في أسرهم، وأنت كنت مصابًا بشدة وكان يجب عليّ أن أحاول إنقاذك."

سأله (باسم) بعصبية:

"من الذين اختطفوه؟ ولماذا فعلوا هذا؟"

صمت (ريتشارد) قليلًا، ثم نظر ناحية (مارية) التي قالت له:

"لا بأس، أعتقد يجب أن يعرف، فهو بالفعل متورط في الأمر."

فزفر (ريتشارد) كأنه ينفث كل أفكاره ومخاوفه، ثم قال:

"هل تذكر جماعة النيكرومانسر الذين أخبرتك عنهم من قبل عندما كنا في مكتب (مصطفى)؟"

قال (باسم) وهو يسترجع ذاكرته:

"نعم لقد أخبرتنا أن هذه الساعة لها علاقة بهم بشكلٍ ما."

فقال له (ريتشارد):

"حسنًا، هم يحاولون الحصول على الساعة الرملية، وهم من نفذوا الهجوم على مبنى الأبحاث."

بدت الدهشة على ملامح (باسم) فأكمل (ريتشارد) قائلًا:

"هذه الفتاة اسمها (إينور) وأبوها نيكرومانسر اسمه (سليم) يعمل في مصر تحت ستار رجل الأعمال، وله نفوذ كبير؛ هو ليس نيكرومانسر عاديًّا بل أحد أعضاء المجلس النجمي الذي يحرك جماعتهم، ومصنف لدينا من درجة الخطورة القصوى."

كان عقل (باسم) يعمل بأقصى قدرته لاستيعاب هذه المعلومات، ثم تساءل بحيرة:

"ومن أنتم بالضبط؟ أنت لســـت مجرد عالـــم في الأنثروبولوجيا، أليس كذلك؟"

اعتدل (ريتشارد) في مجلســـه واقترب من المكتبة القديمة، وهو يقول لـــ (باسم) دون أن ينظر إليه:

"ما هي معلوماتك عن الخيمياء؟"

ففكر (باسم) قليلًا ثم قال له:

"الخيمياء هي علم قديم مختص بأشياءَ مثل تحويل النحاس لذهب وصنع أكســـير الحياة وغيرها، وقد تخلـــص العلم من هذه الخرافات ليتحول إلى علمٍ حديث يقوم على التجربة وهو العلم المعروف باســـم (الكيمياء)."

صمت (ريتشارد) وهو يبحث في المكتبة ممررًا إصبعه على الكتب قبل أن يصل إلى ضالته، فانتزع أحد الكتب وعاد إلى موضع (باســـم) وقال له:

"الكيمياء هي القشـــرة المادية للخيمياء، فالخيمياء علم ســـحري وروحي، إنه أعمق بكثيرٍ مما يمكنك أن تتخيل."

أخذ يقلب في صفحات الكتاب، كأنه يبحث عن شـــيءٍ ما قبل أن يصل إلى صفحةٍ رسم بها رجل له جناحان أبيضان؛ يقاتل مخلوقًا له ملامح شيطانية، فقال:

"منذ بدء التاريخ؛ كان هناك صراع بين عرقين قديمين لا ينتميان إلى هذا العالم؛ وهما (الأكاشـــيون والزودياك) الأكاشيون هم كائنات نورانية ذات أجنحة بيضاء، ظن البشر البدائيون أنهم ملائكة أو آلهة، أمـــا الزودياك فهم مخلوقات ذات طبيعة مظلمة شـــيطانية، والأرض هي حلقة الوصل بين العالمين، تقاتل العرقان في زمنٍ ســـحيقٍ على هذه الأرض، حتى انتهى الأمر بانتصار الأكاشيين، ونفي الزودياك إلى عالمهم الشـــيطاني، ولكن ظل خطر عودتهـــم إلى الأرض مرة أخرى قائمًا؛ لذا ترك الأكاشيون اثني عشر أكاشيًا على الأرض أطلقوا عليهم اسم (الحرس الأكاشـــي) هدفهم حماية البوابات بين الأرض والعوالم الأخرى، قد تعرف منهم (تحوت، وهرمس، وزرادشت) وغيرهم، وكان منهم هذا الرجل."

ثم أعـــاد التقليب في الكتاب مرة أخرى قبل أن يتوقف على صورة رجلٍ له جناحان أسودان، ويرتدي حول عنقه سلسلة يتدلى منها ساعة رملية، قبل أن يقول له:

"هذا الرجل هو..."

فقاطعه (باسم) قائلًا في دهشة:

"(مورفيوس) إله النوم والأحلام الإغريقي."

فابتسم (ريتشارد) وقال:

"أعـــرف أنك كتبت هذا فـــي مقالك، ولكن هذه ليســـت الحقيقة الكاملة."

نظر له (باسم) متسائلًا، فأكمل قائلًا:

"اسمه بالفعل (مورفيوس) وكان واحدًا من الحرس الأكاشي، ولكن قوة السلطة أعمت قلبه، فقد رأى أن الأكاشيين أقوى من البشر، وأن البشر جنس ضعيف لا يقدر حتى على حماية ذاته، وسعى إلى أن يصبح ملكًا على عالم البشر مخالفًا قوانين ومبادئ الأكاشيين، وأدرك الحرس الآخرين نواياه ومطامعه وحذره أحدهم وهو صديقه المقرب (إلكسيوس) من مغبة ذلك، وحاول أن يثنيه عن عزمه."

تذكر (باسم) الهمس الذي سمعه عندما اقترب منه (ريتشارد) ولمسه لكنه لم يقل شيئًا بل راقبه وهو يقلب الصفحات مرة أخرى على صورة رجلٍ بجناحين أبيضين يتقاطع سيفه الأبيض مع سيفٍ أسود يمسك به (مورفيوس) بجناحيه الأسودين، وأكمل قائلًا:

"تواصل (مورفيوس) سرًا مع الزودياك، وفتح لهم البوابة إلى عالم البشر كي يساعدوه في الحرب ضد الحرس الأكاشيين، واعدًا إياهم بالانتقام من الأكاشيين وأن يصبحوا أعوانه في حكم العالمين، وهكذا سقط (مورفيوس) في الظلام واصطبغ جناحاه باللون الأسود عندما تدنس بالشرور، فقاتله (إلكسيوس) مع الحرس الآخرين في حربٍ زلزلت هذا العالم، ونفاه من هذا العالم إلى البرزخ وهو ظلام سرمدي يقع بين العوالم المختلفة، أما الحرس الآخرون بعد التخلص من (مورفيوس) خشوا من مغبة تكرار الأمر فقرروا مغادرة الأرض بعد تعليم البشر الخيمياء واستخدام الطاقة الأثيرية من حولهم لحماية

البوابة بين عالمهم والعالم الشيطاني، لكن (مورفيوس) لم يختفِ تمامًا من هذا العالم، فقد ظل أثره وشره يلطخان هذا العالم، ومن خلال هذا الأثر يستطيع (مورفيوس) أن يصل إلى كل من بداخله رغبة شريرة وأن يبث رسائل إليه في أحلامه، تجعله يسعى لتحرير (مورفيوس) من سجنه الأبدي، وبمرور الوقت تأسست طائفة (النيكرومانتيا) أو (النيكرومانسر) التي تسعى لتحرير (مورفيوس).“

كانت (مارية) تنصت طوال الوقت، وعندما وصل (ريتشارد) إلى هذه النقطة أصابت جسدها قشعريرة، وكادت تطلب من (ريتشارد) التوقف لكنها تذكرت أنها من طلبت منه أن يتكلم في البداية، فعادت إلى صمتها وقد شعر (باسم) بتوترها، فسأل (ريتشارد):

”وكيف يستطيعون تحريره؟“

قلب (ريتشارد) صفحات الكتاب مجددًا حتى وصل إلى صفحةٍ رسم بها غراب يفرد جناحيه، وقد ارتسمت حوله دائرة كبري من الرموز بها أربع دوائر أخرى بأربعة ألوانٍ مختلفة؛ أسود، أبيض، أصفر، وأحمر ثم قال:

”عن طريق حجر الفلاسفة.“

فقال له (باسم) بحيرة:

”لم أفهم.“

قال (ريتشارد) شارحًا:

"الخيمياء تنقي الإنسان قبل أن تنقي المادة، فتحويل النحاس إلى ذهب ما هو إلا نظرة الخيمياء الأسمى عن تحويل الإنسان الفاني الذي يصيبه المرض والتقدم في العمر إلي إنسانٍ خالد لا يموت؛ عن طريق صنع حجر الفلاســـفة، يُصنع حجر الفلاسفة على أربع مراحل تُسَمَّى (ماجنُم أوبُس) أو العمل العظيم، وفيهـــا يصل الخيميائي إلى اتحاد الفاني بالخالد، والمحدود باللامحدود، وتصبح أمامه احتمالات وقدرات غير محدودة، أدرك النيكرومانســـر أنه من خلال حجر الفيلســـوف يمكنهم إعادة (مورفيوس) إلى هذا العالم مرة أخرى؛ إلا أنهم دائمًا ما يفشـــلون في الوصول إلى المرحلة الرابعة في العمل العظيم المسماة (روبيدو) أي الاحمرار."

وكان يشـــير بإصبعه إلى واحدة من الدوائر الأربع الصغيرة ذات لونٍ أحمر، ثم اســـتمر (ريتشـــارد) في تقليب الكتاب، وفي الصفحة التالية كان هناك رجال مصلوبون تنزف منهم الدماء لتغذي ســـاعة رملية مرتسمة على الأرض، فأكمل (ريتشارد) قائلًا:

"لم يتوقف النيكرومانســـر أبدًا عن محاولة الوصول إلى المرحلة الرابعة أو الروبيدو، وكان في اعتقادهم دومًا أنها ترتبط بلون الدماء البشـــرية الأحمر، لذا يرتبط كل سحر النيكرومانســـر بالدماء، وبها يستمدون قوتهم من عالم الزودياك، ظهر النيكرومانسر في كل مكان يمكن أن يوجـــد فيه دماء، فقد ظهروا في الحروب وظهروا كقراصنة، وظهـــروا حتى أثناء اجتياح مرض الطاعون، بل لا أســـتبعد أن يكون

الطاعون نفسه أحد تجاربهم الشـــيطانية، وحتى في العصر الحديث استمروا في إشعال الحروب، واستطاع بعضهم الوصول إلى مناصب ضخمة لكنهم يحيطون ما يفعلونه بالكتمان الشديد."

شعر (باســـم) بالدوار مما يسمعه، فوضع كفيه على صدغيه وهو يتساءل:

"وما علاقة النيكرومانســـر بالخيمياء؟ أنتمـــا فريقان مختلفان حسبما فهمت منك."

زفر (ريتشارد) بقوةٍ قبل أن يقول:

"النيكرومانسر هو الوجه المظلم للخيمياء، إنه تعاليم (مورفيوس) المظلمة الدنسة."

لم يعلق (باسم) فأكمل (ريتشارد) حديثه:

"هناك أسطورة يتداولها النيكرومانســـر منذ قرونٍ بعيدة، تقول الأســـطورة أن نيكرومانسر واحد استطاع أن يقترب بشدة من مرحلة الروبيدو، وكاد أن يســـتدعي (مورفيوس) إلـــى العالم قبل أن يوقفه الخيميائيون، لكن هذا النيكرومانسر قبل موته ترك وراءه أثرًا مقدسًا يستطيع من يملكه أن يعيد (مورفيوس) إلى هذا العالم، وأرجح الظن أن تلك الساعة الرملية هي هذا الأثر."

سأله (باسم) وهو يحاول أن يستوعب ما يسمعه:

"لماذا اختيارهم لرمز الساعة الرملية المجنحة بالذات؟"

أجابه (ريتشارد):

"الساعة الرملية هي رمز لفتح البوابة بين العالمين، فالرمال تنتقل من حجرةٍ لأخرى، كما يحدث الانتقال من عالمٍ لآخر، وترمز الرمال إلى مرور الزمن الموعود على عـــودة (مورفيوس) مجددًا إلى هذا العالم، والجناحان هما جناحي (مورفيوس) الأسودين."

ثم قلب صفحات الكتاب إلى رســـم رجلٍ ذي جناح أبيض وجناح أسود، وقد التفت حوله أفعى تحاول أن تلتهم ذيلها، و(ريتشارد) يقول:

"لكن الخيميائيين كانوا دائمًا متواجدين حيث يوجد النيكرومانسر، يواجهون خططهم الشيطانية ويحبطون أعمالهم الشريرة، الخيميائيون دومًا هم حراس البوابة بين العالمين، يحفظون التوازن ويحمون العالم من الدمار."

ثم أخرج سلسلة المفتاح من عنقه، وهو يقول:

"لذلك يرتدي الخيميائيون سلســـلة مثل هذه كرمزٍ على إخلاصهم وولائهم وحمايتهم للبوابة، وإبقائها مغلقة للأبد."

فقال له (باسم) بذهول:

"إذن أنت خيميائي؟"

فأومأ (ريتشارد) برأسه دلالة على الإيجاب، وهو يعيد السلسلة إلى مكانها.

شعر (باســـم) أنه في كابوس على وشـــك أن ينتهي، لا يمكن أن يكون كل هذا حقيقي، جماعات ســـرية تتصارع منذ آلاف الســـنين، وعوالم وأجناس أخرى، أشـــياء لا يمكن أن تكون حقيقية، فقال لـــ (ريتشارد) في محاولةٍ أخيرة يائسة:

"وما الـــذي يثبت لي أن كل ما قلته حقيقي، وليس مجرد مجموعة متقنة من الأكاذيب؟"

بدا على (ريتشـــارد) الضيق، لكن ابتســـامة مشفقة من (مارية) جعلته يهدأ قليلًا ويقول:

"هذا الرجل الضخم الذي هجم على المبنى، ألم تلحظ فيه أي شيء غريب؟"

فقال (باسم) مفكرًا:

"لقد كانت جروحه تشفى على الفور، وهذا غريب حقًّا."

فعاد (ريتشارد) لإمســـاك الكتاب، وهو يقلب في صفحاته قبل أن يقف على صـــورةٍ تبين طفلًا صغيرًا موضوعًا داخل قارورة زجاجية، وهو يقول له:

"هذا الشـــيء اســـمه (هومنكلوس) أو (هومنـــكلاي) وهو أحد النظريات الأساسية المنبثقة من الخيمياء، والتي تعني صناعة الإنسان البشري داخل المعمل، عن طريق استخدام النسب الحقيقية للمكونات الداخلة في تركيب الجسم البشري مثل الحديد والكالسيوم ...وغيرها،

إلا أن الخيميائيين لم يجربوا الأمر بسبب خشيتهم من التلاعب بالحياة البشـــرية، بينما النيكرومانسر الذي يعدون الوجه المظلم للخيمياء لم يتورعوا عن محاولة تجربة النظرية، هم لم يخلقوا الحياة حرفيًا وإنما استطاعوا صناعة دمية يتحكمون بها، جســـد لا يقهر يمكنه التجدد باســـتمرار، لكن طريقة صنعه مخيفة تتطلب التضحية بالكثير من الدماء، لذا لا يمكنهم صنع الكثير منه."

شعر (باسم) بالصدمة، كان يرغب في تكذيب كل ذلك لكن ما ذكره (ريتشارد) قد رآه بعينيه، هذا لا يمكن أن يكون وهمًا، ورغم ذلك أراح رأسه على الوسادة وهو يقول بعناد:

"لا أستطيع تصديق كل هذا!"

فقال له (ريتشارد):

"هناك شيء واحد سيجعلك تصدق."

نظر له (باســـم) باهتمام، وأثار كلامه اهتمام (مارية) أيضًا التي ظلت صامتة طوال الحوار، فأكمل (ريتشارد) قائلًا:

"بأن تصبح خيميائيًا."

شعر (باسم) بالذهول وشـــاركته (مارية) ذهوله، فهي لم تتوقع ذلك، ساد الصمت الغرفة لبضع لحظات ثم سأله (باسم) بصوتٍ واهن:

"وماذا عن دكتور (مصطفى)؟ لقد تورط في كل ذلك بسببي أنا."

ربت (ريتشارد) على كتفه، وقال:

"لا تحمل نفسك فوق طاقتها، كل من له علاقة بهذا الكشف كان سيتورط في الأمر سواء عاجلًا أم آجلًا، اعتقادي هو أن (سليم) سيستخدمه كورقةٍ للضغط علينا من أجل تسليم الساعة الرملية، ولكن لا يمكننا التخلي عن الساعة بهذه البساطة، كما أننا لا نستطيع التخلي عن دكتور (مصطفى) ففي نهاية الأمر هو لا ذنب له ليعلق في منتصف هذا الصراع الأزلي، لذا فالخيميائيون يقومون بدراسة الأمر والتحري عنه، لمعرفة أنسب الطرق لتخليصه من قبضتهم."

لم يجبه (باسم) وبدا على ملامحه انعكاس للصراع العميق الدائر في أعماقه، فقال له (ريتشارد):

"لا تفكر في الإجابة الآن، فيجب عليك الحصول على قسطٍ كافٍ من الراحة، وبعدها سأحترم قرارك أيًّا ما كان."

ابتسمت (مارية) ابتسامة مشجعة، ثم قالت لـ (ريتشارد):

"علينا الآن تركه كي يستطيع الراحة والنوم قليلًا."

وهكذا غادرا الغرفة ليتركا (باسم) وحده، غارقًا في أفكاره وحيرته.

الفصل الثامن

ظلال الماضي

سار جنود الجيش في الشـــوارع الرخامية لأثينا المدينة الإغريقية العتيقة ـــــ التي تحمل اسم أثينا ربة الحكمة ـــــ وهم يقتادون أمامهم مجموعة من الرجال في ملابس ســـوداء، وغطاء رأسٍ يخفي ملامحهم، في مشـــهدٍ أثار الخوف في قلب كل من رآه، وقد كُبِّلت أيديهم بأغلالٍ معدنية بينما يتلو أحد الكهنة ترنيمات دينية، متوسلًا لآلهة الأوليمب أن يحموهم من الظلام الذي يحاول التسلل إلى العالم، وابتهالات إلى أبولو أن يحمل ضوء الشمس إلى الأرض كي يطهرها من الدنس.

تعالت الهمسات بين عوام الناس وهم يتدافعون لرؤية هذا الحدث العجيب ويـــرددون جملًا متفرقة: "إنهم طائفـــة مخبولة تعبد الإله (مورفيوس)".. "هؤلاء من يسمون أنفسهم بالنيكرومانتيا".. " يقال إنهم قتلوا العديد من المواطنين لاســـتخدامهم كأضحيات بشرية في طقوس السحر الأسود".. "أجل، لقد كُشِفَ أمرهم وقبض عليهم وصدر حكم بإعدامهم للخلاص من شرورهم".

كان هناك طفل صغير منزويًا في أحد الأركان يســـتمع إلى حديث الناس، وجسده يرتجف من الغضب والخوف، والدموع الساخنة تسيل

من عينيه وهو يتذكر كلمات أبيه الأخيرة؛ لا يجب أن تندثر علومهم، لا يجـــب أن يضيع ما فعله النيكرومانتيا هباءً، يجب أن يحمل هو العبء على عاتقه.

بعينين غاضبتين مظلمتين راقب المشهد، لقد تقرر إعدام عائلته في الميدان الكبير الذي يوجد به التمثال العملاق للإله (مورفيوس) كنوعٍ من الإذلال عند الموت، وقد ألقى جناحاه ظلالًا كئيبة على الواقفين في المكان، شاهد أباه يرفع رأسه وهو ينظر إلى تمثال (مورفيوس) قائلًا:

"فلتحل عليك البركة في الظلام."

فلطمه أحد الجنود على وجهه وهو يصرخ:

"من سمح لك بالكلام أيها الحقير؟"

ارتجف جسده الفتى في غضب، بينما ارتفع صوت الناس يهللون، وفي أعينهم نظرات متعطشـــة للدماء، وفجـــأة اهتزت الأرض ليحل الصمت، فنظر الفتى ليرى رجلًا ضخمًا يحمل فأسًا عملاقة، ويرتدي على وجهه قناعًا، لا يبدو منه إلا عيناه المخيفتان الجاحظتان، والأرض ترتج مع كل خطوةٍ من خطواته، أخيرًا توقف وهو ينظر لأسفل بعينيه الجاحظتين المخيفتين، ورفع فأســـه العملاقة لأعلى مستعدًّا لتنفيذ الحكم بالإعـــدام، وصاحت الجموع المتعطشـــة للدماء، وهي تطالب الجلاد بتنفيذ الحكم، وفجأة هوت الفـــأس بكل قوتها على ضحيتها، فأغمض الفتى عينيه وهو يسمع صوت تمزق اللحم وتكسر العظم.

***

شـــعر (باســـم) بيدٍ تهزه بقوة، ففتح عينيه ليجد (مارية) تنظر إليه بقلق، فسألها:

"ماذا هناك؟"

فقالت له، والقلق باديًا على ملامحها:

"لقد كنت نائمًا بينما ترتجف بشدة، وخشيت أن يصيبك ضرر."

تذكر (باسم) الكابوس الغريب الذي راوده، الرجال ذوي الملابس السـوداء، التمثال ذا الجناحين، الرجل ذا الفأس، أحس أن التفاصيل تنسلل من بين أصابعه فلا يقدر على الإمساك بها، وكلما حاول التفكير في الحلم تلاشى أكثر من عقله، فهز رأسه وهو يقول لـــ (مارية):

"شكرًا لكِ، أشعر أنني بخيرٍ الآن."

ساعدته (مارية) على الاعتدال في سريره، وهي تقول له:

"لقد أعددت لك الغداء، سأذهب لإحضاره."

غابت عدة دقائق، ثم عادت وهي تحمـــل طبقًا كبيرًا يتصاعد منه البخار، كانت قد أعدت له قطعة كبيرة من الدجاج مع طبقٍ من الحساء الساخن، ثم قالت له:

"تحتاج أن تستعيد عافيتك سريعًا."

جلست بجواره على السرير وأمســـكت الملعقة وبدأت بإطعامه، انشغل (باسم) بتأمل عينيها الزرقاوين وهو يتناول الحساء، فشعرت (مارية) بالخجل من نظراته وقالت له:

"إلام تنظر؟"

فابتسم (باسم) وقال:

"إن ملامحك غريبة، فهي مزيج بين الملامح الشـــرقية والغربية، ولكنك تتكلمين المصرية بطلاقة!"

ابتسمت بخجلٍ وقالت:

"هذا صحيح فأنا مصرية، ولدت وتربيت في مصر."

فأومأ برأسه وسألها:

"وماذا عن ملامحك؟"

فتنهدت وقالت:

"نعم، فلهذا حكاية."

نظر (باســـم) إليها منتظرًا أن تحكيها ولكن التردد ارتســـم على ملامحها، فأزاح طبق الحساء جانبًا وقال:

"كلي آذان مصغية."

فتنهدت (مارية) مجددًا ثم قالت:

"كل ما في الأمر هو أنني من الغجر."

اتسعت عينا (باسم) في دهشةٍ وقال:

"لقد سمعت طويلًا عن الغجر، ولكن ما علاقتهم بكل ذلك؟"

حدقت (مارية) بعيدًا كأنها تنظر عبر الماضي، وقالت:

"الغجـــر من أقدم الخيميائيين علـــى الأرض، فقد برعوا كثيرًا في الخيمياء، وكانوا في العصور القديمة يجوبون الأرض بحثًا عن أسرارها؛ في مصر القديمة، واليونان، والهند، والصين، وتردد اسم إكسير الحياة

دومًا في الحكايات الشعبية للغجر، فقد كانوا يسمونه (ماء الشفاء أو ماء الحيـــاة) وروت حكاياتهم قصص الباحثين عن الخلود، أو الموتى العائدين إلى الحياة، ترمز هذه الحكايات إلى سعيهم الدائب للبحث عن أسرار الخيمياء، إلا أنهم بسبب طبيعتهم المنغلقة لم يندمجوا مع باقي الخيميائيين، كمـــا كانوا دومًا منبوذين من غير الخيميائيين، يرمونهم بالسحر والشعوذة، رغم أن بعضهم يلجأ للغجر أحيانًا من أجل بعض الأعشـــاب العلاجية، أو من أجل قراءة الـــودع، وأوراق التاروت، إلا أن أكثر الناس كانوا يخشـــونهم، ويحذرون أبناءهم الصغار من الاقتراب منهـــم، ظنًّا أنهم قد يخطفونهم، ومع الوقت توقف الغجر عن الترحال واستقرت مجموعات منهم بدولٍ مختلفة، ومنهم (الرومن) وهم غجر أوروبا و(الدومر) وهم غجر الشـــرق الأوسط، واستقرت منهم طائفة بعد ترحال في مصر حيث المنبع الســـحري القديم للخيمياء.. ومنهم أنا، غجرية دومرية."

أنهت (مارية) حكايتها بينما (باســـم) ينظر إليها بانبهار؛ متعجبًا من هذا العالم السحري الذي يدور حوله في الخفاء، كان (باسم) يظن في الماضي أنه يعرف كل شـــيء، أو أنه يســـتطيع معرفة كل شيء، ولعل هذا سبب اتجاهه للصحافة، فحبه للفضول والبحث عن الحقيقة والمعرفة محركه الدائم، إلا أنه منذ بداية هذه المغامرة، وهو يشـــعر بالضآلة أمام هذا العالم الغريب، فقد انفتحت أمامه أبوابًا من العلوم، وظهرت أمام عينيه عوالم خفية لم يكن يدرك عنها شيئًا.

قالت (مارية) بوجنتين متوردتين:

"فيم تفكر؟"

ابتسم (باسم) وقال:

"أفكر كم كنت أحمقًا!"

فابتسمت بخجلٍ مضاعف وقالت:

"حسنًا، فلتكمل طعامك أيها الأحمق."

وعادت تطعمه الحساء بملعقتها، وفي تلك اللحظة دخل (ريتشارد) عليهما فرآهـــا وهي تطعمه والابتســـامة تعلو وجه (باســـم) فقال (ريتشارد) مازحًا:

"يبدو أنك قد بدأت تستعيد عافيتك."

احتقنتا وجنتا (مارية) بدماء الخجل بينما سأله (باسم) محاولًا أن يداري خجله بدوره:

"متى سيبدأ تدريب الخيميائيين الذي أخبرتني به؟"

قال (ريتشارد) بجدية:

"بمجرد أن يعود (آدم) من ليبيا."

هنا تكلمت (مارية) أخيرًا والدهشة تعلو وجهها:

"أبي؟ متى سيعود؟"

قال لها (ريتشارد) وهو ينظر إلى الساعة المحيطة بمعصمه:

"قد يصل في الصباح الباكر، أما الآن فعلينا الحصول على قســـطٍ كافٍ من النوم، سيكون أمامنا سفر في الغد."

تساءلت (مارية):

"سفر؟ إلى أين؟"

قال لها (ريتشارد):

"إلى الإسكندرية."

***

كانت (مارية) نائمة في غرفتها بينما قضى (ريتشارد) ليلته نائمًا على أريكة في ردهة البيت، ومع تسـلل أضواء الفجر الأولى إلى البيت من بين فرجات النوافذ، التقطت أذنا (مارية) مرهفة الحس صوت باب البيت وهو يفتح، فاسـتيقظت من نومها على الفور، وقامت بارتداء ثوبٍ واسـع فوق رداء النوم الذي ترتديه وأسرعت خارج الغرفة لتجد (ريتشارد) قد اسـتيقظ بدوره ويقف مواجهًا أبيها ببشرته السمراء ورأسـه الصلعاء وعينيه الزرقاوين الداكنتين كعينيها، و(ريتشارد) يقول له:

"لا تضيع وقتًا كعادتك، أيها العجوز."

أجابه أبوها بصوته العميق والجدية مرتسمة على قسماته:

"ما أن أخبرني (الهرامسة) بالأمر، حتى قطعت زيارتي إلى ليبيا، وعدت إلى هنا على الفور."

ركضت (ماريـة) ناحية صاحب الصوت لتحتضنه بشـدة، وهي تقول:

"أبي! لقد عدت أخيرًا."

فربت أبوها على ظهرها بحنان، ثم سـرعان ما استعادت ملامحه جديتها، وهو يقول:

"أين هو هذا الخيميائي الجديد؟"

سار ثلاثتهم ناحية غرفة (باسم) وطرق (ريتشارد) الباب قبل أن يسمع صوتًا يدعوه للدخول، ففتح الباب ليجد (باسم) قد استيقظ بدوره وجلس معتدلًا في فراشه، فقال له:

"هناك شخص أريد أن أعرفك به يا (باسم).. هذا (آدم العطار) والد (مارية) وواحد من أكبر الخيميائيين في مصر."

التفت (باسم) ناحيته في رهبة، وقال بلهجةٍ صبغها بالاحترام:

"تشرفنا."

أما (آدم) فقال بجدية:

"فلتستعد يا (باسم) للذهاب إلى الإسكندرية لتباشر تدريبك في بيئةٍ مناسبة."

قالت (مارية):

"ألن ترتاح من السفر أولًا يا أبي؟ لقد قدمت لتوك من ليبيا!"

هز (آدم) رأسه وقال:

"لا يوجد وقت لنضيعه."

فنظر (ريتشارد) إلى (باسم) وقال مازحًا:

"كما ترى إنه شخص جاد تمامًا، ولكنه محق يجب أن نتوجه إلى الإسكندرية على الفور."

نقلت (مارية) نظرها بينهما ثم قالت:

"حسنًا سأذهب معكم."

فتح (آدم) فاه ليعترض فبادرت (مارية) قائلة على الفور:

"ستحتاجون إلى العديد من الوصفات من أجل تدريبه، وأنا من أعتني به منذ أن جاء إلى هنا، لذا سأكون أفضل من يعد له الوصفات المناسبة."

عقد (آدم) حاجبيه، فقال (ريتشارد):

"مارية محقة، كما أن مجيئها معنا أفضل من بقائها هنا وحدها في تلك الظروف."

وهكذا وجد (باسم) نفسه جالسًا في سيارةٍ يقودها (ريتشارد) متجهًا إلى الإسكندرية، وفي المقعد الخلفي جلس (آدم العطار) وبجواره (مارية) يتبادلان الحديث عن الخيميائيين في ليبيا وأحوالهم، لم يفهم أغلب حديثهما، تشاغل بالنظر إلى الطريق عبر زجاج النافذة، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها إلى الإسكندرية، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها إليها وهو لا يعرف ما هو مقبل عليه، وهكذا غرق في أفكاره الخاصة، وبدون أن يشعر غرق في نومٍ عميق.

***

وقف الفتى في منتصف الميدان الرخامي بمدينة أثينا، بالقرب من تمثال أثينا، وقد غابت الشمس وحل المساء وانصرف الناس إلى بيوتهم بعد مشهد الإعدام القاسي، أما الفتى فقد تجمدت الدموع في محجريه

والقمر يلقي بضوئه على كومة من الجثث لمن كانوا يومًا أقرب الناس إليه، كان كلُّ أثرٍ للخوف قد اختفى من قلبه وحل محله رغبة شديدة في الانتقام، انهار الفتى على ركبتيه أمام نهر الدماء السائل من الجثث مقطوعة الرأس على الأرض الرخامية البيضاء ليصبغها بلونٍ أحمر قانٍ، وبدون أن يشعر وجد نفسه يمد يديه إلى الدماء ويغترف منها ويقربها من شفتيه، ثم ارتشف منها وأحس بطعم الدماء اللزج المالح يملأ فمه، ومع كل رشفةٍ يتدفق إلى روحه معرفة تلك الأرواح التائهة، كل وأفكارهم وأحلامهم وطموحاتهم، تدفقت إلى روح ذاك الفتى الصغير.

وأخيرًا اعتدل الفتى واقفًا، والدماء الحمراء تصبغ فمه، فبدا مظهره مخيفًا في ضوء القمر، ثم قال بصوتٍ يحمل كل ألمه وحزنه وغضبه:

"فلتحل عليكم البركة في الظلام."

***

استيقظ (باسم) وهو يشعر بثقلٍ شديد على ظهره ويكافح ليلتقط الهواء، ووجد كل من (ريتشارد، وآدم، ومارية) ينظرون إليه في قلق، وأدرك أن السيارة متوقفة، فنظر إليهم في حيرة، فقالت له (مارية):

"لقد تكرر ذلك الأمر مجددًا."

قال (آدم) موجهًا حديثه إلى (ريتشارد):

"هل لديك تفسير لما حدث للتو؟"

زفر (ريتشارد) بحرارةٍ ثم قال:

"أخشـــى أن نظريتي بشأن الشـــر القديم الذي تسلل من الساعة الرملية إلى روح (باسم) حقيقة."

ثم أدار السيارة مجددًا، وهو يقول:

"يجب ألا نضيع المزيد من الوقت."

لم ينبس أحدهم ببنت شـــفة، ولم يشعر (باسم) أن لديه أي رغبة في النوم مجددًا، فاكتفى بمراقبة الطريق عبر نافذة السيارة الزجاجية حتى وصلوا إلى الإسكندرية، وتســـلل إلى أنفه الهواء المشبع برائحة الملح القادم من جهة البحر، قطعت الســـيارة شـــوارع الإسكندرية، و(باسم) يفكر إلى أين هم متجهون! حتى توقفت السيارة أمام مكتبة الإسكندرية، وقبل أن يسأل (باسم) عن سبب توقفهم، قال (آدم) لـــــ (ريتشارد):

"سأدخل أنا و(مارية) أولًا، ثم اتبعني أنت و(باسم)."

تابعهما (باسم) بناظريه حتى غابا داخل مكتبة الإسكندرية، فقال (ريتشارد):

"هيا بنا."

فقال له (باسم) متسائلًا:

"إلى أين؟"

خرج (ريتشارد) من السيارة وهو يحمل حقيبة جلدية صغيرة قد رآه (باسم) باكرًا هذا الصباح يضع فيها الساعة الرملية المجنحة، ثم قال له وهو يغلق السيارة:

"إلى مقر الخيميائيين بمصر بالطبع."

فقال (باسم) باستنكار:

"داخل مكتبة الإسكندرية؟"

ابتسم (ريتشارد) وأجابه:

"سترى كل شيءٍ بنفسك."

تبعه (باسم) إلى داخل مكتبة الإسكندرية التي كانت تعج بالزائرين من مختلف الجنسيات، بعضهم جاء يسعى للمعرفة، والبعض جاء لمشاهدة التحفة المعمارية التي بُنيت لتخليد مكتبة الإسكندرية القديمة التي حُرقت منذ قرونٍ بعيدة، وتساءل (باسم) إن كان لحرقها علاقة بما يدور في الخفاء بعيدًا عن أعين الناس، ثم ابتسم من الفكرة، لقد أصبح متقبلًا تمامًا لتلك الأفكار وبدأ يفسر العالم على أساسها لكن من يدري أين الحقيقة في هذا العالم الغامض!

رأى (ريتشارد) يتوجه ناحية أحد المصاعد، فتبعه ورآه يخرج مفتاحه الفضي من حول عنقه، ويولجه في فتحة مخصصة داخل المصعد، وبدلًا من أن يصعد المصعد لأعلى لاحظ (باسم) أنه يتجه لأسفل، وعندما انفتح الباب رأى أغرب مشهد في حياته؛ عدة رجال يذهبون ويجيئون وهم يرتدون ملابس غريبة، ورموز وتماثيل ولوحات فرعونية في كل مكان، وتمثال ضخم لـ (تحوت) منتصب بمنتصف بهوٍ متسع، وكان (آدم العطار) في انتظارهما وبجواره (مارية) وقال لـ (باسم):

"منذ هذه اللحظة ستبدأ تدريبك على الخيمياء."

فتساءل (باسم) بقلق:

"و(ريتشارد)؟"

فأجابه وهو يربت على كتفه:

"سأبقى بجوارك بالطبع."

شعر (باسم) بالراحة أن (ريتشارد) لن يتركه وحده، كان يتلمس بعض الأمان في هذا العالم الغريب بوجود (ريتشارد) بجواره.

سار (ريتشارد) بحقيبته الجلدية الصغيرة عبر أروقة مقر الخيميائيين أسفل مكتبة الإسكندرية، يتبعه (باسم) بينما توجه (آدم العطار وماريـة) لمقابلة بعض الخيميائيين في المقر، كان بعض الخيميائيين يرحبون بـ (ريتشارد) بينما ينظرون إلى (باسم) في تعجبٍ وتساؤل، حتى وصل (ريتشارد) إلى غرفةٍ واسعةٍ مليئةٍ برفوفٍ يتراص بها مجلدات قديمة؛ استطاع تمييز بعض العناوين باللغة العربية مثل؛ (سر الخليقة وصنعة الطبيعة لـ (بلياس) الحكيم) و(سر الأسرار للرازي) و(مفاتيح العلوم للخوارزمي) و(صندوق الحكمة لجابر بن حيان) ومصنفات أخرى بعناوين إنجليزية ولاتينية، كما كان هناك قوارير زجاجية مليئة بسوائل مختلفة، وبعض الأدوات الأخرى التي لم يفهم (باسم) طبيعتها، كان في الحجرة خيميائي شاب يرتدي نظارة طبية ويجلس على مكتبٍ خشبيٍّ عاكفًا على أحد

المجلدات، رحب بـــ (ريتشارد) الذي عرفه بـــ (باسم) فقال الشاب وهو يعدل نظارته بسبابته:

"أنا (عمر) المصري المســـؤول عن حفظ الأرشـــيف، خيميائي متخصص في الإكسير، وأجري بعض البحوث حول السيمياء."

رحب به (باســـم) رغم أنه لم يفهم شـــيئًا من كلامه، ولكنه شعر بالارتيـــاح للحديث معه فهو يبـــدو ودودًا ومرحًا، لا شـــديد الجدية كالآخرين، بعد ذلك وضع (ريتشـــارد) حقيبته الجلدية على المكتب الخشبي وأخرج منها الســـاعة الرملية بحذرٍ وهو يمسكها من الخيط الكتاني الذي تتدلى منه، ثم أعطاها إلى (عمر) كي يضيفها إلى واحدةٍ من الرفوف الخشـــبية العديدة بعدما أخبره بطبيعتها، فتناولها منه عمر بمزيجٍ من الانبهار والرهبة، ثم ودع (ريتشـــارد) و(باسم) وهما يغادران حجرة الأرشيف.

سار (ريتشـــارد) بصحبة (باسم) في ممرات يتراص على جانبيها أبواب خشـــبية مغلقة، حتى وقف أمام أحدهم وفتحه ليدلف إلى غرفةٍ صغيرة يوجد بها سرير واحد وبعض الأثاث البسيط، ثم قال له:

"ســـتقيم هنا منذ هذه اللحظة، وإذا احتجت شـــيئًا فلا تتردد أن تطلبه مني."

أومأ (باسم) إليه بالإيجاب، فقال (ريتشارد) قبل أن يغادر الغرفة:

"والآن سأتركك لتستريح، ومنذ الغد سيبدأ تدريبك كخيميائي."

أغلق (ريتشارد) الباب خلفه، وما أن صار (باسم) وحده حتى تمدد بجسده على السرير كي يستريح من السفر، لكنه لم يجد في نفسه أي رغبة في النوم، خوفًا من تكرار تلك الأحلام الغريبة، وبعد مرور بعض الوقت سمع طرقًا رقيقًا على الباب، قبل أن تدخل (مارية) وهي تمسك بقارورة زجاجية مغلقة بغطاءٍ من الفلين، قامت بإعطائها له وهي تقول:

"لقد أعددت هذا الإكسير خصوصًا من أجلك."

أمسك بالقارورة وتأمل السائل السماوي شبه الشفاف فيها، ثم قال لها:

"ما هذا السائل بالضبط؟"

فابتسمت وقالت:

"حسنًا سأخبرك، لكن لن تستطيع رأسك تحمل التفاصيل الفنية، إلا إذا كنت ترغب في أن تتخصص في الأكاسير فيما بعد، ولكن هذا السائل سيجعلك تنام نومًا هادئًا، كما أتمنى."

أضافت كلمتها الأخيرة في تردد، ففتح (باسم) غطاء القارورة وقرب أنفه من فوهتها لكن السائل كان عديم الرائحة، فرفع القارورة وشرب محتوياتها دفعة واحدة، كان طعمها لاذعًا ولكن أثره لم يبق في فمه طويلًا، فابتسمت وقالت:

"سأتركك الآن لتحصل على قسطٍ كافٍ من النوم."

ثم غادرت الغرفة وتركته وحده، فاستلقى (باسم) على فراشه، وسرعان ما راح في نومٍ عميق، نوم بلا أحلام.

***

جلس ثلاثة عشر رجلًا في قلب ظلمةٍ قاتمة، فغرقت ملامحهم في الظلال، وقد جلس كل واحدٍ منهم على عرشٍ أحمر ياقوتي، بينما كان اثنا عشر منهم يتطلعون إلى الثالث عشر الجالس على رأس المجلس، وهو يقول بصوتٍ عميقٍ مهيب:

"بلغتني أخبار فشلك في الحصول على الساعة الرملية يا (سليم)."

اتجهت كل العيون إلى أحد الجالسين، وقد غرقت ملامحه في الظلام وهو يقول بنبراتٍ جامدة:

"لقد سبقنا الخيميائيون بخطوةٍ، لكنني لم أفشل بعد."

فقال صاحب الصوت العميق:

"كممثلٍ للمجلس النجمي في مصر والشرق الأوسط، يقع على عاتقك مسؤولية الحصول على هذا الكتاب، وفشلك يعني أن يضطر المجلس النجمي للتدخل، وأنت تعرف عواقب الفشل جيدًا."

قال (سليم) مجددًا بنبرته الجامدة:

"لن أفشل."

هنا تدخل أحد الجالسين بصوتٍ ساخر:

"ربما لم يكن ليفشل إن لم تتدخل ابنته المدللة (إينور) في الشؤون الخاصة بالنيكرومانسر."

قال (سليم) بنبرةٍ غاضبة:

"انتبه إلى كلماتك يا (ماجوس) فهي ابنتي رغم كل شيء."

قاطعهما صاحب الصوت العميق:

"(ماجوس) محق يا (سليم).. ليس لديك وريث حتى الآن، والقوانين صارمة، نحن لا نسمح بانضمام الإناث إلى المجلس النجمي."

ورغم ملامح (سـليم) الغارقة في الظلام، فقد شعر جميع أعضاء المجلس بغضبه، ثم قال صاحب الصوت العميق:

"سـنمهلك وقتًا كافيًا لكن إن تعقدت الأمور سـيتدخل المجلس النجمي بنفسه، هل هناك أي تعليقات أخرى؟"

صمت الجميع، فقال الصوت مرةً أخرى:

"حسنًا، انتهى هذا الاجتماع."

بدأ الظلام يتلاشى، ومعه اختفت العروش المختلفة، ليجد (سليم) نفسه جالسًا وحده في مكتبه، لكم الجدار بجواره وهو يقول:

"اللعنة."

ثم قال وعيناه تحترقان بغضبٍ مخيف:

"سيدفع هؤلاء الخيميائيون الثمن."

الفصل التاسع

الخيميائي الجديد

جلس (ريتشـــارد) متربعًا على الأرض وأمامه (باســـم) وحولهما اشتعلت الشـــموع، وانبعث عبق البخور في الغرفة الخالية من الأثاث التي جهزها (ريتشـــارد) لتدريبات (باســـم) الذي أخذ نفسًا عميقًا للسيطرة على توتره، لم يقاطع (ريتشـــارد) أفكاره حتى فتح عينيه مجددًا وبدا مستعدًّا، فقال له:

"أول شيءٍ يجب على الخيميائي معرفته، كل شيءٍ في هذا الكون يتكون من الأكاشـــا، أو ما يطلق عليه البشر اسم (الأثير) ومن الأكاشا انبثقت العناصر الأربعة الرئيســـية، وكان أول عنصر انبثاقًا هو النار، ثم الماء والهواء والأرض، ومن العناصر الأربعة تشـــكل كل شيءٍ في الكون، وفي كتاب الحكمة القديم المســـمى بـــ (أوراق التاروت) يوجد إشارة للعناصر حيث تشير الكروت الأربعة الأولى إلى العناصر الأربعة، فالســـيف هو النار، والكأس هو الماء، والصولجان هو الهواء، والعملة هي الأرض."

صمت قليلًا ليتأكد من استيعاب (باسم) لما قاله، ثم أكمل قائلًا:

"ومن خلال التناغم مع الكون والأثير؛ يستطيع الخيميائي التحكم في العناصر الأربعة، بل يستطيع من خلال تغيير نسبها ومقاديرها أن يغير الشيء إلى شـــيءٍ آخر، أو استدعاء ما يريد من الهواء عن طريق تحكمه في الطاقة الصافية من حوله، وتدريبك على ذلك ســـيبدأ من اليوم، أول تدريب هو التدريب على التنفس، يجب عليك مع كل نفس أن تشعر بالكون، بالطاقة، بالعناصر المتدفقة من حولك، سيكون عليك عمل أربعة تدريبات تنفس مختلفة، الأول أن تتنفس سبع مرات وأنت تتخيل الحرارة، وتتخيل الكون كله من حولك نارًا متأججة ســـاخنة، الثاني أن تتنفس وأنت تتخيـــل أن الكون كله من حولك محيطًا أزرقَ واسعًا باردًا، الثالث أن تتنفس وأنت تتخيل أن الكون كرة ضخمة من الهواء وأنت بمنتصفها، وأخيرًا أن تتنفس وأنت تتخيل أنه لا يوجد في الكون إلا الأرض وأنت جالس على سطحها شاعرًا بقوة جاذبيتها، كل تمرين ستكرره سبع مرات حتى أعود إليك مرة أخرى."

أومأ له (باسم) برأسه، فأكمل (ريتشارد):

"هناك أيضًا تدريبات رياضية، وهي جزء من تدريبات الخيميائي، كما أن الرياضة جـــزء من حياته لا يمكنه الاســـتغناء عنه، فالتناغم بين الجســـد والروح هو مفتاح التحكم في العناصر، كما يجب عليك أن تلتزم بنظام الأكل والشـــرب الذي سأرسمه لك، ستحضر (مارية) بعض الوصفات من أجلك، فهي خيميائية بارعة بالرغم من صغر سنها وستساعدك كثيرًا."

ثم اعتدل واقفًا، وقال:

"والآن سأتركك تكمل تدريبك، وسأعود بعد فترة لأطمئن عليك."

شاهده (باســـم) يغادر الغرفة ثم أغلق عينيه، وراح عبق البخور يتســـلل إلى عقله وروحه، في البدء لم يكن يشعر بشيءٍ لكن بمرور الوقت شـــعر أنه مع كل تخيل كان الجو يتغير من حوله بحســـب كل عنصر يتخيله، فيشعر بحالاتٍ مختلفة من الحرارة والبرودة، وتيارات الهواء وجاذبية الأرض، شـــعر أنه أصبح واحدًا مع الكون، واحدًا مع الأكاشا، غرق (باسم) في هذا الإحســـاس لفترةٍ طويلة، وفجأة شعر أنه يســـقط في الظلام، وسمع الهمسات تعود إلى عقله، وشعر بشيءٍ يضغط على روحه، وبألمٍ شـــديدٍ في صدره، ثم فجأة شعر بيدٍ تهزه بقوة، ففتح عينيه ليجد (مارية) تنظر ناحيته بقلقٍ وهي تمســـك في يدها قنينة بها سائل أحمر اللون، فقال لها:

"ماذا هناك؟"

أجابته، وما زال القلق يبدو على ملامحها:

"لقد أحضرت لك إكسيرًا لمساعدتك على التدريب فوجدتك ترتجف بشدة، وخشيت أن يصيبك ضرر."

تذكر (باسم) الهمسات التي شعر بها ثم قال:

"شكرًا لكِ، أشعر أنني بخيرٍ الآن."

أعطته (مارية) الإكسير، فلم يتردد بل فتح القنينة وتجرع السائل على الفور، كان حارًّا للغاية كأنه مصنوع من الفلفل الحريف، وأحس بالدموع تحتبس في عينيه، وندم على تجرعه للســـائل دفعة واحدة، فضحكت (مارية) وقالت له:

"لا تقلق، سيختفي الطعم الحار بعد قليل."

قال لها (باسم) وهو يكافح للحفاظ على تنفسه هادئًا ومنتظمًا:

"كنت أفضل لو أخبرتِني بذلك قبل تناول هذا السائل."

لكن بمـــرور الوقت بدأ الأثر الحار يقل تدريجيًا، لكنه بدأ يشـــعر بحرارة جسده كلها ترتفع، فقالت له (مارية):

"هذا الإكســـير يعمل على تنقية روحك من أي طاقةٍ سلبية، قد لا تكون مدركًا لذلك، ولكن الروح تجمع الكثير من الشـــوائب على مدار الحياة، معظمها من المشاعر السلبية التي تنتاب الإنسان مثل الغضب والحسد... وغيرها، يجب على الخيميائي أن يركز على الطاقة الإيجابية لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لينسجم مع عناصر الطبيعة من حوله."

شعر (باسم) بالأدرينالين يتدفق في جســـده بشكلٍ غريب، كأنه قادر على فعل أي شـــيءٍ يجول في خاطره، لو أراد حمل جبل لفعل ذلك، فقالت له (مارية):

"تدريبات الخيميائيين في المعتاد تأخذ وقتًا طويلًا، لكنني أخشى ألا يوجد الكثير من الوقت أمامنا في حالتك، يقول (ريتشارد) أن عليك أن تروض روحك الخاصة لكيلا يســـتطيع أي شر اختراقها أو التحكم بها."

كان هذا الكلام ليثير خوف (باسم) أو قلقه على أقل تقدير لو قيل له في ظروفٍ أخرى، لكن خروج الكلمات من بين شفتي (مارية) جعله يشعر بالسكينة والاطمئنان، فقال لها:

"سأبذل كل ما بوسعي، ما دمتِ بجانبي."

ثم قال مستدركًا وقد شعر بالتسرع والحماقة في قوله:

"أعني لمساعدتي في التدريبات بالطبع."

ابتســـمت (مارية) في خجل، وقالت كأنها لم تفهم دلالات جملته الأولى:

"بالطبع فهذا دوري، ستساعدك الأكاسير كثيرًا في قطع خطواتٍ واسعة في التدريبات في فتراتٍ قصيرة، أو هكذا آمل."

لـــم يتبادلا كلمة أخرى بعد ذلك، حتى انتهى (باســـم) من تدريب التنفس وقرر العودة إلى غرفته، فصحبته (مارية) حتى وصلا إلى باب الغرفة، وهناك تركته وحده كي يســـتريح، كان يرغب بشدة أن تبقى معه قليلًا، لكنه لم يجرؤ على التفوه بذلك، فودعها ثم دلف إلى الغرفة واســـتلقى على ســـريره، ورغم رغبته الحقيقية في النوم إلا أنه كان يخاف منه، حينها يكون عقله في أضعف حالاته، فتهاجمه الكوابيس والأفكار الســـوداوية، بدأ يتنفس كما تعلم، أصبح الأمر يسيرًا بالنسبة له، أن يحرر عقله وتطفو روحه، أن يخفض نبضات قلبه، أن يتحد مع الكون، مر وجه (مصطفى) مـــن أمامه فانقبض قلبه، ثم رأى صورة مهزوزة للباب المغلق في أعماقه فطرد الصورة من ذهنه على الفور، اســـترخى أكثر، ترك روحه تطفو أكثر، كأنـــه يبحر في نهرٍ من نور، حتى استغرق في نومٍ عميق، نوم بلا أحلام.

***

في الصباح التالي التقى (باسم) بـــ (ريتشارد) في البهو بالقرب من تمثال (تحوت) فبادره (ريتشارد):

"كنت على وشك أن أرسل في طلبك، كيف حال تدريبات التنفس؟"

قال له (باسم):

"لقد ظللت أمارســـها بالأمس طيلة اليوم، واليوم بعد استيقاظي، ولكن هل هذا كل شيءٍ حقًّا؟"

ابتسم (ريتشارد) وقال:

"لا تقلق، لقد أعددت لك شيئًا خاصًّا اليوم."

فقال (باسم) مازحًا:

"أخيرًا شيء آخر غير التنفس."

أجابه (ريتشارد) بجدية:

"تدريبات التنفس هامة للغاية لتأهيلك لما أنت مقبل عليه."

اختفى المرح من ملامح (باسم) وهو يتساءل:

"وما هي تلك المرحلة؟"

رفع (ريتشارد) يده أمام وجهه، وقال:

"تحويل طاقة الأثير إلى عنصرٍ من العناصر الأربعة، وسنبدأ اليوم بالنار."

ارتسم الانبهار على وجه (باسم) الذي قال له:

"وهل أستطيع فعل ذلك حقًّا؟"

قال له (ريتشارد):

"لا تقلق، ستعرف ذلك بعد قليل."

ما أن أنهى (ريتشـــارد) كلماته حتى انحرف في أحد الممرات ثم وقف أمام بابٍ حديدي، وما أن فتحـــه ودلفا إلى الغرفة حتى وجدها

(باســـم) مبطنة من الداخل بألواحٍ معدنية، وهناك مشعل دائري في كل ركنٍ من أركان الغرفة به قطع من الحطب، لم يفهم (باسم) معنى كل ذلك، فأشـــار له (ريتشارد) بالجلوس في منتصف الغرفة، فجلس متربعًا وأمامه (ريتشارد) الذي قال له:

"في المعتاد يحتاج الخيميائيون لأشـــهر أو حتى سنوات لإكمال تدريبهـــم، ولكن في حالتك أنـــت لا يوجد لدينا وقـــت للانتظار، لذا سأستخدم معك بعض الأســـاليب الخاصة التي نســـتخدمها أحيانًا للتسريع من تلك العملية."

أومأ (باســـم) برأســـه متفهمًا وهو يزدرد لعابه في قلق، فأكمل (ريتشارد) وهو يضم أصابع كفه على شكل كرة:

"الآن كما قلت لك ســـيكون عليك محاولة استحضار عنصر النار، الأمر يشـــبه تدريبات التنفس التي أتقنتها، عليـــك أن تركز أفكارك وطاقتك في محاولة تخيل كرة نارية ملتهبة، في البداية يمكنك تشكيل كرة نارية صغيرة، ولكن بعد أن تتقدم، قد تســـتطيع أن تشكل أشياء أضخم."

شعر (باسم) بتغيرٍ في الهواء قبل أن تتكون كرة ملتهبة من النار بين أصابع (ريتشـــارد) قبل أن تختفي مرةً أخرى مخلفة وراءها أثرًا من الدخان، الذي سرعان ما اختفى بدوره.

ارتسم الذهول على وجه (باسم) الذي يرى تشكيل العناصر للمرة الأولى في حياته، فقال له (ريتشارد):

"والآن دورك."

ركز (باســـم) أفكاره، ومد يده أمامه، وقد قبض أصابعه، وبرزت العروق على صدغيه، وهو يركز كل أفكاره في المحاولة لكن شيئًا لم يحدث وظهر اليأس على ملامح (باســـم) فقال له (ريتشارد) بلهجةٍ جادة:

"لا تشتت تفكيرك، دع عنك القلق والشك في ذاتك، دع كل أفكارك تطفو ولا تفكر سوى في عنصر النار."

أومأ (باسم) برأسه وبدأ يقوم بالتدريب مرات ومرات، وفجأة ظهر أثر بسيط من الدخان ثم تلاشى سريعًا كما ظهر، فارتسمت السعادة على وجه (باسم) وقال له (ريتشارد) مشجعًا:

"إنها بداية جيدة حقًّا، والآن يمكننا الانتقال إلى الخطوة التالية."

ثم اعتدل واقفًا واتجه ناحية المشاعل وفرقع أصابعه ليخرج لسان من الشـــرر يشـــعل النار في الحطب، ثم كرر ذلك مع بقية المشاعل حتى أشـــعل النيران في المشـــاعل الأربعة، فارتفعت درجة حرارة الغرفة و(باسم) ينظر إليه بفضولٍ منتظرًا أن يفهم ما يحدث وأشعل (ريتشارد) سيجارة من النار المشتعلة، أخذ منها نفسًا عميقًا ثم أشار بيديه حوله وهو يقول:

"هذا الجو الحار في تلك الغرفة سيســـاعدك أكثر على الاتحاد مع عنصر النار والتحكم فيه."

أومأ له (باســـم) برأســـه متفهمًا ثم جلس كلاهما وجهًا لوجه في منتصف الغرفة، بعدها شعر (باســـم) أن جسده يتصبب عرقًا فقام بنزع قميصه المبتل وجلس عاري الجذع، كان هناك عدد من الفتحات

في الغرفة يتسلل منها الهواء، لكنه كان هواءً حارًا، فأغلق عينيه وصب كل تركيزه على التفكير في شيءٍ واحد، عنصر النار.

ارتفعت حرارة الغرفة حتى صارت لا تطاق، وشعر بها تطبق على أنفاسه، كما شـــعر بكل خليةٍ في جسده تصرخ من الألم، لكن مظهر (ريتشارد) الهادئ أمامه جعله يقاوم لكيلا يظهر الألم الذي يشعر به بينما (ريتشارد) كان يشعر بما يعتمل في داخله، فقال له:

"لا تفكر في النار على أنها شـــيء مؤلم، الطبيعة ليست عدوًا لك، يمكنك التناغم معها والتحكم بها، ركز."

فكر (باسم) في أن يقول له أن الكلام أسهل من الفعل، لكنه احتفظ بالفكرة لنفســـه ثم أغمض عينيه وبدأ يتخلى عن كل الأفكار الأخرى عدا التفكير في عنصر النار، كان التركيز صعبًا وهو يشـــعر بألمٍ في كل خليةٍ في جسده، كإبرٍ حادة تخترق مسامه، لكن بمرور الوقت بدأ يعتاد على حرارة الغرفة اللافحة، بل بشكلٍ أدهشه أصبحت محببة له؛ كان يشعر بالحرارة من حوله لكنها لم تؤلمه، بل كان يشعر باسترخاءٍ غريب، ففتح عينيه ليرى شـــيئًا غريبًا، الدخان يتصاعد من جسده كله لكنه لا يشعر بحرارةٍ أو ألم، بل باسترخاءٍ في كافة أطرافه.

ابتسم (ريتشارد) وقال له:

"لقد أحرزت تقدمًـــا رائعًا اليوم، دعنا نكمـــل تدريبك في الغد، سأنتظرك في الصباح هنا في الموعد ذاته."

تنهد (باسم) بارتياح، ثم اعتدل واقفًا وهو يرتدي قميصه، قبل أن يتوجه ناحية غرفته التي حفظ موضعها ولم يعد يحتاج إلى أحدٍ ليدله

إلى المكان، كان بحاجةٍ لقســـطٍ من الراحة بعد يومٍ طويلٍ وشاق من التدريبات، لكنه ما أن اســـتلقى على سريره حتى وجد نفسه يفكر في تدريباتـــه، فحاول مجددًا أن ينفذ التدريب وهو يتنفس متخيلًا عنصر النار ليشعر بالحرارة تغلفه، فقبض أصابعه وقد انتفضت عروق يده وهـــو يركز كل طاقته، ومجددًا خرج خيط دخان رفيع من النار، فزفر مستسلمًا وخلد إلى النوم.

***

في اليوم التالي استيقظ (باســـم) متحمسًا للتدريب، فتوجه على الفور إلى الحجرة الفولاذية، حيث وجد (ريتشـــارد) في انتظاره وهو يمسك بقنينة بها إكسير أحمر، وهو يقول له:

"هذا سيساعدك على التركيز في تدريبك."

فقال (باسم):

"أعرف لقد أعطتني إياه (مارية) عندما كنت أمارس تدريبات التنفس."

فابتسم (ريتشارد) وقال:

"ولكن هذه المرة طلبت منها تركيزه قليلًا، أعتقد أنك مستعد لذلك الآن."

اتسعت عينا (باسم) وهو يقول له:

"هل تمزح؟"

ولكن تعبيرات وجه (ريتشـــارد) أنبأته أنه جاد تمامًا، وفي الوقت الذي بدأ فيه الأخير يشـــعل المشـــاعل الأربعة، نزع (باسم) قميصه وجلس في منتصف الغرفة وهو يمســـك بالإكسير في تردد، فقال له (ريتشارد) وحرارة الغرفة تزداد تدريجيًا:

"هيا لا يوجد المزيد من الوقت لنضيعه."

فنزع (باســـم) ســـدادة القنينة الفلينية وتجرع السائل في جرعة واحدة، ثم أخذ يكافح ليتنفس، لم يكن (ريتشارد) يمزح، السائل أكثر حدة وحرارة هذه المرة بالفعل، كانت الحرارة تحرق جوفه وتحيط به في الحجرة الفولاذية، فأغمض عينيه وبدأ يركز كل تفكيره في عنصر النـــار، أن يتحد معه، لم يحاول (ريتشـــارد) أن يوجهه هذه المرة بل تركه يتغلب على إحساســـه بالألم، أن يصفي ذهنه بنفسه، حتى شعر بالنار كأنها تتدفق في عروقه مجرى الدماء، ففتح عينيه وضم أصابعه أمام وجهه مركزًا كل تفكيره في تشكيل النار، وفجأة تكونت كرة نارية صغيرة بين أصابعه، فارتســـم على وجهه الفرحة والسعادة، وأطلق (ريتشارد) صفيرًا طويلًا من بين شفتيه وقال:

"أنت تحرز تقدمًا مذهلًا."

فانطفأت النار بين أصابع (باسم) ونظر إلى (ريتشارد) وهو يقول:

"لم أظن أنني سأقدر على فعلها حقًّا."

فابتسم (ريتشارد) وهو يقول:

"هذه هي الخطوة الأولى فقط، أمامك طريق طويل لتقطعه."

قضى (باســـم) الأيام التاليـــة يتعلم التحكم في النار، إشـــعالها وإطفاءها، إطلاق بعض ألســـنة النار من بين أصابعه وتشكيلها في أشـــكالٍ مختلفة، لو أخبره أحد منذ بضعة أيام أنه سيصير قادرًا على فعل ذلـــك لظن أن المتحدث مجنون، فكر في ذلـــك وهو يتأمل النار المشـــتعلة بين أصابعه، وتنعكس على عينيه العسليتين، بتوهجٍ أحمر رهيب.

الفصل العاشر

واحدٌ مع العناصر

تغيرت حياة (باســـم) تمامًا بعد انتقاله إلى مكتبة الإسكندرية، ما بين انشغاله بالتدريبات والتعرف إلى الخيميائيين الجدد وفهم المزيد عن هذا العالم، الذي انبهر به بشـــدة، فبجانب تدريبه على التحكم في عنصر النار واصل التدريب على التنفس، بجانب ممارســـة الرياضة، والوجبات والوصفات التي تعدها له (مارية) يوميًّا، كان (باسم) يبدي تقدمًا ملحوظًا، فقد استطاع التحكم في تنفسه ونبضات قلبه، واندملت جروحه من أثر حادثة الهجوم على مركز الأبحاث.

أما الوقت الذي لا يقضيه فـــي التدريبات أو بصحبة (مارية) كان يقضيه في الأرشـــيف، حيث يلتهم الكتب رغبةً في معرفة المزيد عن الأكاشـــيين، و(مورفيوس) والخيميائيين، والنيكرومانســـر، وتاريخ صراعهم، ولقد كان (عمر) المسؤول عن الأرشيف يساعده في فهم كل ما يستعصي عليه فهمه.

في إحدى الأمســـيات التقى (باسم) بـــ (مارية) وهو في طريقه إلى الأرشيف، فقررت أن تصحبه إلى هناك وهي تسأله عن تقدمه في التدريبات، فأجابها:

"أشعر بالإرهاق من كل هذه التدريبات، بالكاد أجد الوقت لالتقاط أنفاسي."

ضحكت (مارية) ثم قالت له وهما يخطوان إلى داخل الأرشيف:

"أتمنى لو عدت متدربة، فقد مللت من كل تلك الأكاسير."

كان (عمر) موجودًا داخل الأرشيف وقد سمع جملتها الأخيرة، فقال وهو يعدل من وضع نظارته على أنفه بسبابته:

"أختلف معكِ يا (مارية) فالأكاسير علمٌ مثير للاهتمام، والبعض يعده أساس علم الخيمياء."

ابتسمت (مارية) وقالت:

"كنت أمزح فقط، لم أتخيل أن هناك من هو متعصب للأكاسير أكثر من أبي."

ثم التفتت إلى (باسم) وقالت له:

"لقد ساعدني (عمر) في الأيام الماضية في إعداد بعض الأكاسير لك."

اكتسى وجه (عمر) بحمرة خجلٍ خفيفة، وقال:

"أنتِ لا تحتاجين إلى مساعدة، فدماء آل العطار تسري في عروقك، الشرف لي أن أكون بجوارك لإبداء ملاحظاتي المتواضعة."

ثم التفت إلى منضدةٍ خشبية عليها صف من القوارير الزجاجية والسوائل الغريبة، وقال لها:

"في الحقيقة كنت أعمل على هذا الإكسير الذي طلب مني (ريتشارد) إعداده، لكنني لم أعده من قبل، ربما أحتاج مساعدتك قليلًا."

تركهما (باسم) يتبادلان الحديث عن الإكسير وأخذ يتصفح الكتب المتراصة على الأرفف الخشبية، ثم انتقى كتابًا ذا غلافٍ جلديٍّ سميك، وأوراقٍ قديمة صفـــراء، وانهمك جانبًا ليتصفحه وقد اســـتغرق فيه بحواســـه، حتى توقف عند رسمة رجلٍ يبرز من ظهره جناحان؛ واحد أبيض والآخر أسود، فسأل بصوتٍ مرتفع:

"ما هذا؟"

ترك (عمـــر، ومارية) ما في أيديهما لينظرا إلـــى الكتاب، ثم قال (عمر):

"هذا هو النيفلم."

تساءل (باسم) بفضول:

"النيفلم؟ ماذا تعني؟"

قالت (مارية) شارحةً:

"النيفلم من المفتـــرض أنه كائن يجمع بداخله قوة الأكاشـــيين والزودياك معًا، أي أنه يمثل الخير والشـــر أو النور والظلام في الوقت ذاتـــه، ويقال أن هذا المخلـــوق قوي للغاية بحيث لا تســـتطيع قوة الأكاشيين أو الزودياك مجتمعة إيقافه."

قال له (عمر):

"ولكنها مجرد أسطورة، لا تشغل نفسك بها."

فقال له (باسم) مبتسمًا:

"لن تصدق كم الأشـــياء التي كنت أظن أنها أســـاطير واتضح لي عكس ذلك."

فضحك (عمر) ثم قال له:

"يمكنني تفهم ذلك تمامًا."

عاد (باســـم) لتصفح الكتاب حتـــى توقف عند رســـمة لتمثال (مورفيـــوس) وقد نقش على قاعدة التمثال كلمات إغريقية، وشـــعر (باسم) أنه يستطيع قراءة الكلمات فرددها هامسًا:

"فلتحل عليك البركة في الظلام."

سمعه (عمر) فقال له بحيرة:

"ماذا تقول؟"

لم يســـتطع (باســـم) أن يقول له أنه يفهم هذه الكلمات رغم عدم معرفته لكيفية قراءة اللغة اليونانية، كان يعرف أن هذا لن يحقق شيئًا وأن يزيد من قلقهم عليه، فقال متمتمًا:

"لا شيء."

ثم وضع أصابعـــه على صدغيه وهو يشـــعر بالصداع، فقالت له (مارية) في قلق:

"هل أنت بخير؟"

قال لها بهدوء:

"مجرد إرهاق من التدريبات فقط، سأذهب إلى غرفتي، هل ترغبين في اصطحابي؟"

قالت (مارية) في حرج:

"اعذرني، فما زلت أساعد (عمر) في إعداد الإكسير ولم ننته بعد."

فقال بملامح جامدة:

"حسنًا، لا بأس، سأذهب وحدي إذًا، طاب مساؤكم."

وقبل أن يجدا فرصة لتوديعه، غادر الأرشيف متجهًا ناحية غرفته، كان يشعر بالغضب لأن (مارية) فضلت البقاء في الأرشيف مع (عمر) بدلًا من اصطحابه، ثم بدأت الغيرة تتسلل إلى قلبه، إنها هناك، في الأرشيف، بصحبة (عمر).. يعدان الإكسير وهما يضحكان ويمزحان، تنامى الغضب في أعماقه، غضب ممتزج بالكراهية، أخذت الأفكار تعتمل في ذهنه حتى وصل إلى غرفته فألقى جسده على الفراش محاولًا أن يتجاهل تلك الأفكار التي تعتمل في ذهنه، لكنه لم يستطع أن يمحو صورة (مارية، وعمر) من ذهنه، حتى راح في نومٍ مضطربٍ ممتلئٍ بالكوابيس.

***

استيقظ (باسم) وهو يشعر بإرهاقٍ شديد في جسده من أثر النوم المضطرب، فتوجه إلى الحمام الصغير الملحق بغرفته وأخذ حمامًا

ساخنًا محاولًا أن يغسل عن جسده أثر هذا الإرهاق، وبعدما استعد للخروج والتوجه لمقابلة (ريتشارد) لاستكمال التدريب، وجد أحد الخيميائيين يخبره أن (عمر) في انتظاره في البهو الرئيسي بجانب تمثال (تحوت) فأخبره (باسم) أنه سيذهب للقائه على الفور وهو يتساءل في أعماقه عن سبب رغبة (عمر) في لقائه في مثل هذا الصباح الباكر.

قطع (باسم) الممرات بخطواتٍ سريعة حتى وصل إلى البهو ورأى (عمر) واقفًا بجانب التمثال، مرتديًا ملابس تقليدية (سروالًا من الجينز وقميصًا قصير الأكمام) لا ثوب الخيميائيين الذي لم يره يرتدي سواه منذ مقدمه إلى مقر الخيميائيين، وهو يمسك في يده قنينة زجاجية بها سائل أزرق، فاقترب منه وسأله:

"ما الأمر؟"

رفع (عمر) القنينة أمام عينيه، فرأى (باسم) السائل يتحرك داخل القنينة حركة انسيابية كأنه كائن حي، وقال:

"تلك الفتاة (مارية) عبقرية بحق، لقد ساعدتني في إعداد واحدٍ من أصعب الأكاسير، لكن هذا ليس غريبًا على آل العطار، فهم عباقرة في هذا المجال."

استعاد (باسم) إحساس الغيرة الذي اجتاحه الأمس، فقال بملامح جامدة:

"يبدو أنك معجب بها!"

عدل (عمر) نظارته على أنفه بسبابته، وقال:

"إعجاب المتعلم بمن هو أعلم منه، لا شـــيء آخر، كما أنها على ما يبدو لا ترى سواك."

قال (باسم) بتعجب:

"سواي؟ ما الذي تعنيه؟"

فوكزه (عمر) بمرفقه وكزة ذات مغزى، وقال:

"أتعني أنك لم تنتبه للطريقة التي تنظر بها إليك؟"

شعر (باســـم) بالارتباك واختلطت المشـــاعر بداخله، هل تفكر (مارية) فيه كما يفكر فيها؟ اســـتعاد العديد من الكلمات التي دارت بينهما، ثم شعر بخجلٍ من مشاعر الغيرة الطفولية التي انتابته ناحية (مارية، وعمر) بل شـــعر بشكلٍ ما أنه يدين لصديقه (عمر) بالاعتذار، لكنه ماذا سيقول له؟ لم يستطع سوى أن يقول:

"دعك من ذلك، وقل لي ما سر تلك الملابس؟"

فضحك (عمر) وقال له:

"أبدو غريبًا، أليس كذلك؟ هذا لأنني سأخرج بصحبتك اليوم."

اتسعت عينا (باسم) وهو يسأله:

"نخرج؟ لماذا؟"

أشار (عمر) إلى (باسم) أن يسير بجواره، وهو يقول:

"يرى (ريتشارد) أنك وصلت لمرحلةٍ جيدة في عنصر النار وحان انتقالك للعنصر التالي، وأنا من سأقوم بتدريبك لأن الهواء هو عنصري الأساسي عكس (ريتشارد) فالنار هي عنصره الأساسي."

رغم أن (باسم) كان يتمنى أن يكمل تدريبه مع (ريتشارد) لكنه رحب بكون مدربه الجديد (عمر) فهذا أفضل أن يكمل تدريبه مع خيميائيٍّ آخر لا يعرفه، وشعر بداخله أن هذا هو دافع (ريتشارد) لاختيار (عمر) رغم صغر سنه، فشعر بالامتنان لذلك.

أدرك أن (عمر) يتجه ناحية المصاعد، فتساءل:

"لماذا سنخرج إذن؟"

أجابه (عمر) وهو يخطو إلى داخل أحد المصاعد:

"لأنه لا يوجد مكان أفضل للتدرب على عنصر الهواء، سوى في وسط هواء البحر، فهذا سيسرع من إتقانك للعنصر من التدرب في هذا المكان المغلق، لقد أخبرني (ريتشارد) بأهمية الوقت في حالتك."

خطا (باسم) إلى المصعد بجوار (عمر) وفي لحظاتٍ أخذهما المصعد إلى مكتبة الإسكندرية، وسارا وسط الناس الذين لا يدركون شيئًا عما يدور حولهم بالخفاء، وشعر (باسم) بالبهجة عند خروجه من مكتبة الإسكندرية ورؤيته لنور الشمس لأول مرة منذ مقدمه إلى مقر الخيميائيين.

استقلا إحدى سيارات الأجرة من أمام المكتبة حتى وصلا إلى جزيرة (فاروس) حيث توجد قلعة قايتباي، وتسلقا سويًا أحد الأبراج التي لا يسمح للسياح بصعودها، ليتمدد البحر أمامهم بزرقته، وهوائه البارد المشبع برائحة الملح يداعب وجوههم، وأخذ شعر (باسم) المنسدل على وجهه يتراقص مع الرياح، و(عمر) يقول له:

"سنبدأ التدريب الآن بهذا الإكسير."

ثم ناول (باسم) قنينة السائل الأزرق المتراقص، ففتح (باسم) سدادتها وبدأ يتجرع السائل، لكنه شعر بشيءٍ غريب، لم يكن للسائل طعم أو رائحة، بل شعر به بالكاد في حلقه، كان أخف سائل يتجرعه في حياته، ومع آخر قطرات السائل شعر أن مسام جسده كلها تتفتح والهواء يمر عبرها بشكلٍ أثار القشعريرة في جسده، لكنه شعر بخفةٍ في روحه لم يشعر بمثلها من قبل مما أثار بداخله الابتهاج.

قال له (عمر) مبتسمًا:

"التدريب على عنصر الهواء يتطلب منك الاتحاد مع الهواء من حولك، لذا هو من أسهل العناصر للتحكم فيها من وجهة نظري، أعتقد أنك ستحبه أكثر من التدريب على عنصر النار في الحجرة الفولاذية."

شعر (باسم) أن التدريب بالفعل ألطف كثيرًا من تدريبات عنصر النار، كان عليه أن يحاول التحكم في الهواء، وهو يتنفس بعمقٍ الهواء البارد الذي يهب عليه من جهة البحر، كما أنه أحب الخروج قليلًا في

الهواء الطلق بدلًا من البقاء طيلة الوقت في مقر الخيميائيين أسفل مكتبة الإسكندرية.

ولكن رغم ذلك لم يكن هناك حتى خيط دخان ينبئه بالتقدم في التدريب كعنصر النار، وكان (عمر) يخبره دومًا أن يتحلى بالصبر ولا يتعجل، وهكذا مر ثلاثة أيام على هذا الحال، وفي اليوم الرابع كانت السماء غائمة والهواء شديد، ثم بدأت السماء تمطر بشدة، فلاذ الناس ببيوتهم وأغلقت الموانئ، وأصبحت الشوارع خاوية ومهجورة، فقال له (باسم):

"ألا يفترض بنا العودة؟"

ولكن عيني (عمر) لمعتا في حماس، وقال وهو يعدل نظارته بسبابته:

"هذا مثالي تمامًا، فهذا ما سيدفعك لأقصى طاقتك."

وهكذا وجد (باسم) نفسه على قمة برج قلعة قايتباي، مستغرقًا في تدريباته بعدما تناول الإكسير، فشعر بهواء العاصفة الشديدة يصفع جسده، والأمطار الغزيرة ترتطم بجسده بعنفٍ كحبات رمالٍ قاسية، ولكنه لم يتخلى عن استرخائه أو تركيزه في تدريبه لحظة واحدة، وفجأة شعر بالهواء يدور من حوله كأنه في قلب دوامة، وشعره يخفق مع الهواء الشديد، ففتح عينيه ليكتشف أن مصدر هذا الهواء الشديد هو جسده ذاته، فوجه تفكيره ناحية جهةٍ معينة، فاندفعت الرياح في

هذا الاتجاه بقوة، فتيقن (عمر) أنه قد أتقن عنصر الهواء بشكلٍ كامل، وأصبح مستعدًا للعنصر التالي.

***

بعدما أتقن (باســـم) عنصر الهواء، كان عليه الانتقال إلى العنصر التالـــي وهو الماء، وعندما عرف (باســـم) أن تدريبه مع عنصر الماء ســـيكون مع (مارية) لأنها متخصصة في هذا العنصر، شـــعر بقلبه يخفق بقوة، وعندما رأته قالت له مازحة:

"لم أدرب أحدًا على التحكم في عنصر الماء من قبل، أحبذ لو كان عليّ تدريبك على صنع الأكاسير، ألا تفكر في هذا الأمر؟"

ضحك (باسم) وقال:

"ربما في المســـتقبل، ولكـــن الآن عليّ التركيز علـــى ما يقوله (ريتشارد)."

أطرقت رأسها وكتفيها في استسلامٍ مازح، ثم قالت له:

"عنصر الماء أسهل العناصر، لقد أجدته منذ صغري، ولكنه ليس من العناصر المســـتخدمة كثيرًا في القتال، هـــؤلاء الذين يتوافق هذا العنصر مع أرواحهم لا يميلون كثيرًا للعنف على كل حال، ولكن يجب عليك التدريب عليه وإتقانه."

أعطته (مارية) إكســـير أزرق اللون دسمًا، ما أن شربه حتى شعر ببرودةٍ شديدة تسري في جسده، فســـيطر على نفسه بصعوبة كيلا

يرتجف أمامها، ثم توجه بعدها إلى حجرةٍ واسعة بها حوض سباحة مليء بماءٍ بارد، فتحلل من كل ملابسه ما عدا سروال السباحة القصير.

طلبت منه (مارية) أن يهبط في حوض السباحة، وأن يركز كل تفكيره في عنصر الماء، ففعل كما قالت، كان الماء شديد البرودة، وشعر بالماء يتسلل عبر مسامه إلى روحه، ثم طلبت منه أن يغمر جسده كله بالماء حتى رأسه، وأن يخفض تنفسه ونبضات قلبه إلى الحد الأدنى حتى يبقى أسفل الماء أكثر وقتٍ ممكن، كان عليه أن يركز في تخيل الماء، البحر الأزرق، المحيط الشاسع، وحينها اقتحمت (مارية) مخيلته بزرقة عينيها، ووجد نفسه مستغرقًا في التفكير فيها، كأن عينيها بركتا ماء زرقاوان يغرق فيهما، ثم أخرج رأسه من الماء وهزها بقوةٍ وهو يحدث نفسه قائلًا:

"ركز!"

فتناثر الماء من شعره المبتل، وعاد لتخيل الماء والبحر ومحاولة الاندماج مع عنصر الماء، ولكن رغم حديث (مارية) عن كون عنصر الماء أسهل العناصر إلا أنه لم يحرز فيه تقدمًا ملحوظًا في فترةٍ طويلة، فظل طيلة اليوم حتى المساء، مغرقًا جسده لساعاتٍ طوال في الماء، محاولًا الاتحاد مع هذا العنصر المراوغ.

بعدما انتهى من التدريب خرج من حوض الاستحمام وأطرافه ترتجف من البرد، فلفت (مارية) جسده بمنشفة ناعمة، وساعدته بعد

ذلك على ارتداء ملابســـه وصحبته إلى غرفته حيث أعدت له مشروبًا ساخنًا ليستعيد الدفء في جسده.

شعر (باســـم) بالسعادة الشـــديدة لوجودها معه، فأخذ يرتشف مشروبه الســـاخن وهو ينظر إليها، وشعرت هي بالخجل من نظراته، وساد الصمت بينهما للحظات ثم قالت له:

"في الغد سننتقل إلى المرحلة التالية في التدريب."

لم يسألها (باسم) عن هذه المرحلة، فهو يعرف أنها ستكون شيئًا كالحجرة الفولاذية، وبالفعل صدق حدســـه، ففي الصباح التالي كان عليه أن يســـتلقي في حوضٍ مليءٍ بالثلج، فشـــعر بالألم في أطرافه وعضلاته، لكن كان عليه التحمل من أجل إتقان العنصر، كان يتنفس كي ينسى الألم، كي يتحد مع العنصر، ويتركه يتسلل إلى روحه.

كان يغمض عينيه فيتخيل أنه يبحر في البحر، سابحًا برشاقةٍ مع الأسماك، يســـابق الأمواج، يدور مع الدوامات، يراقب السفن من بعيد، قبل أن يغوص للأعماق وسط الشـــعاب المرجانية، وأصداف اللؤلؤ، والمخلوقات البحرية الضخمة في أعماق المحيطات.

شـــعر بالماء البارد ينســـاب من حوله، ثم تدفق بقوة، عندها فتح عينيه ليجد أن الحوض يفيض بالماء وينسكب على الأرض، فابتسم في ظفرٍ وأدرك أنه قد انتصر أخيرًا، ثم عاد ليغمض عينيه ويسبح مجددًا في أعماق البحر، متحدًا مع الماء.

***

وقف (باســـم) أمام (آدم العطار) مدربه على عنصر الأرض، وهو يشعر بتوترٍ شـــديد، فرغم أنه يعرف (آدم) جيدًا، إلا أنه كان شخصًا صارمًا جادًّا، لا مجال عنده للمزاح أو لإضاعة الوقت.

قال (آدم) لـــــ (باسم) وهو يضم أصابع قبضته بقوة:

"عنصر الأرض هو عنصرٌ خشـــن صلد، إن لم تحكم قبضتك حوله سيحطمك."

أومأ (باسم) له برأسه متفهمًا وقد بدا عليه التوتر، فأكمل (آدم):

"مفتاح الســـيطرة على عنصر الأرض هو القوى الجسدية، أعرف أنك كنت تواظب على نظام الطعام والتمرينات الرياضية أثناء تدريبك على العناصر الأخرى، ولكن هذا العنصر يختلف، فأنت لا تحتاج فقط إلى اللياقة الجســـدية، بل إلى القوة العضلية أيضًا، لذا ســـيكون أول تدريب لك على هذا العنصر هو حمل الأثقال."

كان هذا هو التدريب الأول الذي لا يعتمد على التنفس والاسترخاء، بل على بذل المجهود والتدريبات الشاقة القاسية، لم يطلب منه حتى التفكير في عنصر الأرض أثناء التدريبات، ولكن (ريتشارد) كان يضع ثقته الكاملة في (آدم) وكذلك فعل (باسم).

كان يعود من التدريبات إلى غرفته كل يوم منهكًا، فيغرق من فوره في النوم، حتى صديقه (مصطفى) لم يعد يزوره في أحلامه كالسابق، ولا الصورة المهزوزة للبـــاب الذي يحمل علامة (هرمس).. كلما أتقن

عنصرًا جديدًا، شـــعر أنه يسيطر أكثر على نفسه وروحه، حتى نوبات الإغماء القديمة لم تعد تنتابه.

بعد وقتٍ من التدريبات البدنية الشـــاقة، بدأ مرحلة تخيل عنصر الأرض، ولكن كان يتخيلهـــا وأثقال من صخورٍ معلقة بأطرافه، فكان يجد صعوبة شـــديدة في التركيز، أدرك حينها أن عنصر الماء لم يكن أصعبهم كما ظـــن؛ لكنه بمرور الوقت اســـتطاع أن يتجاهل الأثقال المتعلقة به، وأن يندمج مع عنصر الأرض، وهو يشـــعر بالزلازل التي تجوب الأرض والبراكين الثائرة، شـــعر بمركـــز الأرض كقلبٍ نابض، حينها لم يعد يشعر بالأثقال، وعندما فتح عينيه، رآها تحلق في الهواء، تطيع إرادته وأفكاره.

ثـــم انتقل معه إلى المرحلة التالية، وهي اســـتدعاء عنصر الأرض وتشـــكيله على هيئةٍ مادية، فبدأ معه بتكوين عملاتٍ معدنية، وبعض الأشـــياء الصغيرة، حتى أصبح قادرًا على تكوين سيفٍ صخريٍّ من الطاقـــة المتدفقة من حولـــه، ورغم ملامح (آدم العطـــار) الجامدة الصارمة، ارتســـم على محياه تعبير عن الفخر وهو يربت على ظهر (باسم).. لقد أكمل تدريبه على العناصر الأربعة.

وفي اليوم ذاته التقى بـــــ (ريتشـــارد) ليسأله عن التدريب على السيوف، فقال له:

"لقد أبليت بلاءً حسـنًا يا بطل، أنت الآن مستعد لتصير خيميائيًا رسـميًا وتتلقى قلادة المفتاح الخاصة بك، لكنني سأتركك لتستريح اليوم."

في المسـاء التقى بـ (عمر) كي يحتفلا سـويًا بهذا الإنجاز، وقضيا اليوم يشـربان بعض المشروبات الخاصة التي أعدها من أجل هذا الاحتفال، كان سـائلًا متعدد الألوان كأنه قوس قزح تتصاعد منه فقاعات صغيرة تنفجر في الهواء كالألعـاب النارية، إلا أنه لا يذهب عقل شاربه وإن كان يصيبه بالسعادة والانتشاء، فقضيا الليل كله في الشراب والاحتفال حتى منتصف الليل.

الفصل الحادي عشر

الاختبار الأخير

وقف (باســـم) وهو يرتدي ثوبًا أزرق اللون مرصعًا بالنجوم، وقد أحاط به الخيميائيون في ملابسهم الرســـمية منهم؛ (عمر، ومارية) وعلى منصةٍ خشبية أمامه جلس (ريتشارد، وآدم العطار) وبعض كبار الخيميائيين؛ استعدادًا لتسليمه مفتاحه، وإعلانه خيميائيًا رسميًا.

قال له (ريتشارد) من وراء المنصة:

"يجب عليك المرور بالاختبار الأخير قبل الحصول على مفتاحك."

فسأله (باسم) وهو يشعر بالاضطراب والتوتر من تلك المراسم:

"وما هو هذا الاختبار؟"

فابتسم (ريتشارد) وقال له:

"الهدف من هذا الاختبار هو معرفة العنصر الأقرب لطبيعتك، كل ما عليك فعله هو تركيز كل طاقتك العقلية في محاولة تشكيل العناصر الأربعة في الوقت ذاته، والعنصر الذي سيتم تكوينه هو العنصر الأقوى عندك والأقرب لروحك وطبيعتـــك، وهو الذي يجب أن تركز عليه فيما بعد."

أغلق (باسم) عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، ولم يقاطعه أحد أو يستعجله حتى مد يده أمامه، وهو يركز طاقته في تخيل العناصر الأربعة سويًا كما أخبره (ريتشارد).. كان الأمر مرهقًا للغاية في البداية، ولقد شعر باضطرابٍ شـــديد في روحه، كأن رياحًا شديدةً تعصف بها، ثم بدأت زوبعة عاتية تحيط بجسده وأخذ شعره يتطاير بقوةٍ حول رأسه، فظهر القلق على ملامح (ريتشـــارد) وفكر أن يطلب من (باسم) أن يتوقف، لكن (آدم العطار) منعه بإيماءةٍ خفية، وظل يراقب (باسم) باهتمام.

فجأة، تلاشت الزوبعة من حول (باسم) وبدا كأنها قد تجمعت في قبضته على شـــكل دوامةٍ صغيرة تحيط بها شرارات زرقاء من البرق، فشـــعر (ريتشـــارد) بالارتياح وأدرك أن الهواء هو عنصر (باسم) ثم اعتدل واقفًا وفتح فاه كي يتحدث، لكنه توقف عندما لاحظ فجأة تشكل حلقة من النار حول الدوامة في يد (باســـم) ثم أحاطت بهما حلقة من الماء، ثم حلقة أخرى من الصخور، والجميع يشاهد هذا الأمر الغريب، وفجأة امتزجت العناصر الأربعة، وتشـــكل فضـــاء ونجوم وكواكب، وأصبح (باســـم) كأنه يحكم قبضته على كونٍ صغير، فشهق بعضهم وهمس البعض الآخر:

"الأكاشا!"

لم يصـــدق الجميع ما يحدث أمام أعينهم وســـاد بينهم اضطراب هائل، وتعالت الهمهمات فصاح (آدم العطار):

"صمتًا!"

قفز (ريتشارد) من فوق المنصة وأسرع ناحية (باسم) الذي شعر بالضعف وسقط على الأرض، وساعده في الوقوف والسير ناحية غرفته، بينما همسات الخيميائيين تلاحقهما، حتى أصبحا وحدهما في غرفته قال له (باسم) بصوتٍ ضعيف، وهو يستلقي على سريره:

"لا أفهم ما حدث؟"

فقال له (ريتشارد):

"لقد قمت بالتحكم في الأكاشا ذاتها، هذا أمر يقدر على فعله الأكاشيون فقط أو أحد ممن وهبهم الأكاشيون قوتهم الخاصة، كالهرامسة."

فسأله (باسم) بألم:

"ولمَ أنا بالذات؟ لمَ يحدث لي كل هذا؟"

ربت (ريتشارد) على ظهره، وقال:

"لا تشغل بالك بذلك الآن، عليك أولًا أن تستريح وتحصل على قسطٍ كافٍ من النوم، وسأقوم أنا بدراسة الأمر."

وهكذا غادره (ريتشارد) ليتركه وحيدًا مع أفكاره، شعر بألم موضع إصابته في صدره يوم سقوطه على صندوق الساعة الرملية المجنحة، ثم رأى صورة باهتة للباب الهرمسي أمام عينيه في قلب الظلمة وهو يهتز بقوة، وسرعان ما غاب عن الوعي.

***

جلس (ريتشـــارد) متربعًا أمام الهرامسة الســـبعة الغارقين في الظلمة التي لا يضيئهـــا إلا ضوء النجوم البعيدة، وقال أحدهم بصوت عميق مخاطبًا (ريتشارد):

"ما سمعناه عن هذا الخيميائي الجديد مثير للاهتمام."

وقال آخر:

"ارتباطه بظهور الساعة الرملية يجعله أمرًا مثيرًا للقلق أيضًا."

عقد (ريتشارد) حاجبيه، وقال:

"لا داعي للقلق، ما زال الأمر خاضعًا للبحث والدراسة."

فأجابه الأول قائلًا:

"إذًا فلتحضره إلى اليونان بصحبة الســـاعة، سيكون الوضع هنا أفضل من مصر."

قال (ريتشارد):

"حسنًا، سأعرض عليه الأمر."

فقال الصوت الأول بنبرةٍ غاضبة، وقد شعر (ريتشارد) بقوةٍ هائلة تضغط على صدره:

"وهل ســـينتظر الهرامســـة موافقته أو رفضه؟ فلتنفذ الأمر على الفور!"

فقال له (ريتشارد) وهو ينتقي كلماته:

"فلتســـمح لي يا سيدي بإبداء رأيي المتواضع، هذا الفتى استطاع التحكم في الأكاشـــا، يجب أن نكشـــف الغموض المحيط بالأمر قبل التسرع في اتخاذ أي خطوة."

قال صوتٌ آخر:

"لا يمكن أن تســـوء الأمور وأنت موجود يا (ريتشارد).. المجلس يضع فيك ثقة كبيرة."

صمت (ريتشارد) ولم يجب، فقال الصوت مؤكدًا:

"أحضره إلى اليونان على الفور يا (ريتشارد)."

تردد صدى الجملة الأخيرة في الظلام ببطءٍ ليصبح (ريتشـــارد) جالسًا وحده، وبعد ذلك انتبه إلى وجود (مارية) التي قالت له:

"الهرامسة مرةً أخرى؟"

أومأ برأسه، وقال لها:

"أجل."

سار عبر الممرات متجهًا ناحية غرفة (باسم) و(مارية) تتبعه وهي تشعر بقلقٍ شديد، وفي غرفته كان (باسم) جالسًا على سريره، يلعب بكرةٍ من النار بين أنامله، فقال له (ريتشارد) معاتبًا:

"الخيمياء ليست للعبث يا (باسم)."

ضم (باسم) قبضته على النار التي تلاشت، ونظر ناحية (ريتشارد) وقد ظهرت ظلال سوداء أسفل عينيه، وهو يقول بنبرةٍ جامدة:

"ما الأمر الآن؟"

أخبره (ريتشارد) برغبة مجلس الهرامسة بسفره إلى اليونان، فقال له بجمود:

"لن أسافر وأترك (مصطفى) في قبضة النيكرومانسر."

فتبادل (ريتشارد) نظرات قلقة مع (مارية) ثم قال له:

"لا تقلق، فنحن نتولى المفاوضات معهم من أجل إطلاق سراحه."

نظر إليه (باسم) بحيرةٍ ممتزجة بالغضب، وهو يقول:

"مفاوضات؟ ماذا تعني؟"

فزفر (ريتشارد) ثم قال:

"النيكرومانسر يفاوضون على حياة (مصطفى) مقابل الساعة الرملية."

ارتسمت الصدمة على وجه (باسم) وصمت لبضع لحظات، ثم قال:

"فلتعطوهم الساعة الرملية اللعينة إذن!"

قال (ريتشارد) بهدوء:

"تمالك أعصابك يا (باسم).. الساعة الرملية قد تساوي في تلك اللحظة حرية الجنس البشري كله، إنها مفتاح تحرير (مورفيوس) بالنسبة لهم، ونحن لم نعرف كل أسرارها بعد، لذا فالتعجل في أي خطوة قد يحمل عواقب لا تحمد عقباها."

صمت (باســـم) ولم يرد، وإن ظهر الغضب جليًّا على محياه، فقال (ريتشارد) محاولًا امتصاص غضبه:

"أعرف أنك تشعر بالمســـؤولية تجاه (مصطفى) ولكن كما قلت لك من قبل، إنه ليس خطأك، دع عنك هذا الإحســـاس بالذنب، لا تحمل نفسك فوق طاقتها."

لم يخرج (باســـم) عن صمته، فنظرت (مارية) إلى (ريتشـــارد) وقالت:

"يبدو أنه لا يزال متعبًا من أثر ما حدث، فلتتركه يستريح ولتكمل الحديث معه لاحقًا."

فتنهد (ريتشارد) في استسلامٍ ثم أخرج مفتاحًا من جيبه، سلسلة فضية يتدلى منها مفتاح، نُقِشَ عليه جناحان مضمومان، وقال له:

"هذا هو مفتاحك، لقد استحققته اليوم عن جدارة رغم كل شيء."

أخذت (مارية) المفتاح منه وهي تومئ له بإشـــارةٍ خفية، فغادر المـــكان دون أن ينطق بكلمةٍ أخرى، أما (مارية) فقد ظلت في الغرفة تنظر إلى (باســـم).. لا يزال الغضب جليًّا فـــي ملامحه، كنارٍ تحترق في روحه وينعكس دخانها في عينيه، كانت ترغب في التخفيف عنه، لكنها لم تعرف ما الذي ينبغي عليها فعله، فنظر إليها (باســـم) وقال لائمًا دون أن يتلاشى غضبه:

"هل كنتِ تعرفين بهذا التفاوض دون أن تخبريني؟"

لم تعرف بِمَ تجيبه، ثم جلست على السرير بجواره ووضعت السلسلة حول عنقه ثم ضمته ووضعت رأسه على صدرها وأخذت تربت على شعره، شعر (باسم) بالهدوء والسكينة، فرفع رأسه من على صدرها ونظر إليها كأنه يستفيق من حلمٍ طويل، وقد انطفأ الغضب في عينيه، فابتسمت (مارية) بوجنتين متوردتين في خجل، ثم ركضت خارج الغرفة وقلبها ينبض بعنف.

جلس (باسم) مرتبكًا يتذكر أحداث الساعات الأخيرة، شعر كأن هناك ضبابًا يكتنف عقله، وكأن هناك صورتين ممتزجتين تختلطان في عقله كلما حاول التذكر، ثم سيطرت عليه فكرة واحدة، وهي تحرير (مصطفى) بأي ثمن.

وهكذا اعتدل واقفًا في جلسته وبدل ملابسه، ثم خرج من غرفته وسار قاطعًا الممرات المختلفة، والأعين الخائفة ترمقه والهمسات تلاحقه لكنه لم يلتفت إليهم، كان يسير وراء هدفٍ محدد، حتى وصل إلى حجرة الأرشيف، فرآه (عمر) الذي صاح وهو يقترب:

"كيف حالك يا رجل؟ لقد أصبتني بالقلق عليك."

لكن (باسم) لم يجبه وهو يسير بين الرفوف الخشبية حتى وصل إلى الساعة الرملية، فصاح (عمر) باندهاش:

"مهلًا، ماذا تفعل؟"

التفت إليه (باسم) ثم التفت مجددًا إلى الساعة ومد يده ليمسك بها بحرص بخيط الكتان، فقال (عمر) بقلق:

"هل يعرف (ريتشارد) بهذا الشأن؟"

لم يلحظ (عمر) متى شـــكلت مطرقة من الصخر في يد (باســـم) وهوى بها على رأسه قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيه، وهو يسقط فاقدًا الوعي.

لم يتوقف (باسم) كثيرًا ليفكر فيما فعله، بل ارتدى الساعة الرملية حول عنقه بجانب المفتاح الفضي، وأحكم إخفاءها جيدًا، ثم سار نحو المصعد بدون أن يلتفت لأحد أو يلتفت أحد إليه، ثم اســـتخدم مفتاحه ليصعد بالمصعد إلى مكتبة الإســـكندرية ثم خرج منها وهو يفكر في رحلته إلى القاهرة، إلى قصر (سليم).

الفصل الثاني عشر

صحوة الشر

سار (باسم) في شـــوارع الحي العريق بالقاهرة واضعًا كفيه في جيبيه، متجهًا نحو قصر النيكرومانســـر (سليم).. كان قد عرف كل شيءٍ عن النيكرومانسر في مصر بفضل تردده المستمر على الأرشيف، فلم يكن الوصول إلى موضعهم صعبًا بالنسبة له، كان يفكر فيما هو مقبل على فعله، إنه متوجه للتفاوض مع النيكرومانسر لإطلاق سراح (مصطفى) وإنهاء الأمر ووضع حدٍّ له، كان يعرف أن الأمور لن تجري بتلك البساطة لكنه كان يشـــعر أنه قادر على فعل أي شيء، ثقة في قوته تســـري في عروقه، مد أصابعه إلى قلادة الساعة الرملية المعلقة حول عنقه بخيط الكتان والتي خبأها أسفل ملابسه، كلما شعر بالتردد أو فكر في التراجع كان يتلمـــس من القلادة الدافع للتقدم إلى الأمام، كما كان يشـــعر بالقوة تتدفق في عروقه منذ أن تشكلت الأكاشا بين أصابعه، كجناحين من طاقةٍ خفية يحملانه نحو هدفه؛ فشعر أنه قادر على فعل أي شيءٍ يفكر فيه، دون أن يقدر أحد على إيقافه.

تجلى له قصر (سليم) في الشـــارع الهادئ التي تترامى الأشجار على جانبيه، وقد خلا من المارة في تلك الســـاعة من الصباح البارد، بينما يقف أمام بوابة القصر الحديدية الضخمة مجموعة من الحراس في ملابسهم الرسمية ونظاراتهم السوداء، يتلفتون حولهم في حركةٍ روتينية، رغم ذلك كانوا متحفزين حال حدوث شـــيءٍ غير معتاد، فهم يدركون طبيعة سيدهم الذي يحمونه.

توقف (باســـم) في موضعه وأخذ نفسًـــا عميقًا وهو يفكر للمرة الأخيرة فيما هو مقدم على فعله، ثم حسم أمره وقطع الخطوات الباقية بينـــه وبين القصر، ما أن رأى الحراس (باســـمًا) وتعرفوا عليه حتى تحفزت أيديهم على موضع أســـلحتهم أسفل ملابسهم، فصاح بصوتٍ عالٍ كي يسمعه الجميع:

"أريد مقابلة (سليم)".

توتر جميع الحراس عند ســـماعهم اســـم زعيمهم، ومضت بضع لحظات من الصمت، قبل أن يسمع (باسم) صوتًا أجشًا يقول:

"افتحوا الباب."

فُتح باب القصر بصليلٍ معدنيٍّ تردد صداه في الشـــارع الهادئ، فرأى (باسم) المزيد من الحراس بملابســـهم الرسمية السوداء، ومن ورائهم رجل ضخم الجثة، يرتدي سروالًا أسود اللون، وقميصًا ممزق

الكمين، يمتلئ جسده بالوشوم العجيبة، فقال (باسم) مجددًا دون أن تتغير ملامحه:

"أريد مقابلة (سليم)."

فقال الرجل الضخم بنبرةٍ ساخرة:

"أنت هذا الصحفي (باســـم) أليس كذلك؟ إنها جرأة منك أن تأتي إلى هنا بقدميك، ولكن الزعيم لا يقابل أحدًا بدون موعدٍ سابق، يمكنني سماع ما تريد قوله بدلًا من الزعيم."

فقال (باسم) ببرود:

"ومن تكون أنت؟"

قال الرجل الضخم بطريقةٍ مسرحية:

"أنا (داجون) كبير الحراس، في خدمتك."

قال له (باسم):

"لن أتحدث مع أقل من (سليم) شخصيًا."

قال له (داجون):

"يبدو أنك لم تستوعب الموقف بعد، بمجرد أن خطوت هنا بقدميك لم يعد الخيار لك بل لنا."

ثم أشار إلى حراسه قائلًا:

"أمسكوه!"

اقترب الحراس من (باســـم) للإمســـاك به، وفي اللحظة التالية هبط لسان برقٍ من السماء لينفجر موضع وقوف (باسم) فتناثر الحراس، ثم ظهر باسم وألسنة البرق تتطاير من حوله، وغضب مخيف يطل من عينيه.

تشـــكل البرق في يد (باسم) على هيئة ســـيفٍ أزرق من الطاقة، فتراجع الحراس في تردد وهم ينظـــرون ناحية (داجون) الذي كان يتبادل نظرات قوية مع (باسم) وقد أدرك بحدسه أنه خصم لا يستهان به.

ظل الخصمـــان ينظران إلى بعضهما البعـــض في تحفزٍ لبعض الوقت، وفجأة بادر (داجون) بالهجوم فانقض على (باســـم) بلكمةٍ من يده اليمنى، فتراجع (باسم) برأسه للوراء ليتفادى اللكمة ثم هوى بالســـيف على (داجون) الذي تلقى السيف على يده اليسرى دون أن يخدشه فاندهش (باسم) لذلك، فاستغل (داجون) ذلك التشتت ليلكم (باســـم) مجددًا بيده اليمنى، هذه المرة وجدت لكمته طريقها إلى فك (باسم) فأجبرته على التراجع بضع خطوات، فالتمعت عينا (باسم) في حماسٍ وهو يمسح خيط دماءٍ يسيل من جانب فمه ويقول:

"خصم جدير بالنزال، لا شـــك أن قتلك سيخفف قليلًا من الغضب المشتعل في أعماقي!"

عقد (داجون) حاجبيـــه في حيرة، فهذا الحديث لا يشـــبه طباع الخيميائيين، لكن (باسم) لم يمهله فرصة للتفكير، فقد مد يده اليمنى لكن لـــم يمدها ناحية (داجون) بل ناحية نافـــورة مياه قريبة مزينة بتماثيل رخامية إغريقية، فخرجت الميـــاه من النافورة والتفت حول جسد (داجون) ثم مد (باسم) يده اليسرى ليخرج منها صواعق البرق التي انتقلت بسرعة عبر الماء لتصعق جسد (داجون) كله الذي تراجع

للوراء في غضبٍ وألمٍ ثم انتزع قميصه المبتل وجذبه مرة واحدة، ليبدو جذعه المليء بالوشـــوم التي ذكرت (باسم) بالنقوش المنقوشة على الســـاعة الرملية، وفجأة بدأ (داجون) يتمتم بلغةٍ غير مفهومة لـــ (باسم).. أضاءت وشومه على إثرها بضوءٍ أحمر مخيف، فتراجع رجاله للوراء في تحفزٍ و(باســـم) ينظر ناحيته مستعدًّا لمواجهة هذا الخطر الجديد، فجأة صاح صوت جهوري تردد في المكان كله:

"ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟"

التفت الجميع إلى مصدر الصوت ومنهم (باسم) فرأى رجلًا عجوزًا أصلع الرأس يطل من شـــرفة القصر المطلة على الحديقة، وبجانبه (إينور) فأدرك (باسم) أن هذا هو النيكرومانسر العجوز (سليم)!

تلاشت ألسنة البرق من حول (باسم) وتلاشى السيف من يده، وإن لم يختفِ الغضب المطل من عينيه، وقال:

"لقد جئت للقائك يا (سليم)!"

ظهر الامتعاض على وجه (إينور) لمخاطبته أبيها باســـمه مجردًا، لكن (سليم) قال بصوته الرخيم:

"ماذا تريد أيها الخيميائي، لقد صرت واحدًا منهم، أليس كذلك؟"

قال (باسم) متجاهلًا سؤاله:

"جئت من أجل الدكتور (مصطفى) لأطلب منك إطلاق سراحه."

عقد (سليم) ذراعيه أمام صدره، وقال:

"ولمَ أفعل ذلك؟"

مد (باسم) يده إلى عنقه فتوتر الحراس وتحفز (داجون) ثم أخرج (باسم) الساعة الرملية المعلقة حول عنقه وأمسكها من خيط الكتان، وهو يقول:

"لأنني جلبت لك ما طلبته مقابل إطلاق سراحه."

نظر الجميع إلى الساعة الرملية في ذهولٍ، ثم ضحك (سليم) بصوتٍ عالٍ وقال:

"تعجبني جرأتك يا فتى."

ثم أشار إلى (داجون) وقال:

"تأكد أنها حقيقية."

تقدم (داجون) للأمام، لكن (باسم) جذب يده للوراء وأعاد الساعة الرملية حول عنقه، وهو يقول:

"لن أسلمها لكم حتى أتأكد أن صديقي بخير."

ظهر الغضب على وجه (داجون) لكن (سليم) قال:

"لك ما طلبت."

ثم التفت إلى (إينور) الواقفة بجواره، وقال:

"اذهبي وأحضريه."

اختفت (إينور) من موضعها في الشرفة بجانب أبيها، ووقف الجميع في انتظار عودتها، فبدا كأن الزمن قد تجمد، وبعد بضع دقائق

خرجت (إينور) من باب القصر إلى الحديقة، ومن ورائها الهومنكلوس (رستم) وهو يحمل (مصطفى) على كتفه، ثم أنزله ليقف على الأرض فبدا أنه استطاع حفظ توازنه بالكاد.

قال (مصطفى) بصوتٍ واهنٍ في ألمٍ وحيرة كأنه لا يصدق ما يراه أمام عينيه:

"(باسم)!"

لاحظ (باسم) آثار جروحٍ عديدة على وجهه، ودماءً تغرق ملابسه، فأدرك أنه قد تعرض إلى تعذيبٍ شـــديد، فشعر بالغضب يملأ أعماقه، أراد أن ينتقم منهم جميعًا لذلك، لكنه كبح جماح غضبه، ما يهم هو أن ينقذ (مصطفى) من قبضته ويخرج به من هنا.

قال (سليم):

"والآن وقد اطمأننت على صديقك، فلتسلم الساعة الرملية."

تردد (باســـم) قليلًا، ثم مد يده إلى الخيط المحيط بعنقه، وفجأة سمع صوتًا مألوفًا يصرخ في غضب:

"هل جننت يا (باسم)؟!"

توجهت كل العيون إلى مصدر الصوت، فرأى (باســـم) (ريتشارد) ومن ورائه (عمر) وخيميائيين آخرين يندفعون من باب قصر (سليم) وقد تسلحوا بأسلحةٍ من نارٍ وبرقٍ وصخر، فشعر بالدهشة، لم يتوقع

أن يصلوا بمثل هذه السـرعة، أما (سليم) فقد صرخ في غضبٍ وهالة سوداء تنبثق من جسده وتغلف المكان، فصاح (ريتشارد):

"إنه يحاول فتح بوابةٍ عبر البرزخ."

وفي اللحظات التالية انفتحت بوابات الجحيم، فما أن رأى الحرس النيكرومانسـي المهاجمين حتى أخرج كل واحد منهم خنجرًا غريب الشكل، ليجرح نفسـه ويرسـم بدمائه دوائر من رموزٍ غريبة على الأرض، فبدأت دماؤهم تتشـكل على شكل دوائر من نقوشٍ شيطانية، ثم تحولت تلك الدوائر إلى بوابات، وامتلأ الهواء بأصوات عواءٍ مخيفة، وذئابٍ شيطانية تقفز من الأرض عبر الأبواب المفتوحة، أما (داجون) فقد ابتسم في شراسةٍ وقد أضيئت وشومه بلونٍ أحمر، وهو يقول:

"سأستمتع بسلخكم أحياء."

رأى (باسـم) من موضعـه (إينور) وهي تتراجـع نحو القصر، و(رسـتم) يجذب معه (مصطفـى) فركض نحوهـم، ومن ورائه (ريتشارد) يحاول منعه وهو يصيح:

"توقف يا (باسم)!"

أما (عمر) فقد انشـغل مع الخيميائيين الآخرين بمواجهة الحرس النيكرومانسـي، وخصوصًا (داجون) الذي شعر بطاقة الشر الهائلة المنبعثة منه، فأمسك بمفتاحه وهو يصيح:

"(أونوريس) حامل السماء، فلتعرني قوتك."

سمع (أونوريس) النداء وســـط الأثير، وأمد قوته لهذا الخيميائي الشاب الشجاع، والذي شعر بالطاقة في عروقه، وجناحا (أونوريس) يحملانه، وســـطح ضوءٍ أزرق يواجه الظلمة التي غلفت المكان، وهو يقف أمام (داجون) وجهًا لوجه.

***

ما أن اقتحم (باســـم) القصر حتى رأى (إينور) في انتظاره، وفي يدها منجل ضخم، بدا متناقضًا مع جســـدها الضئيل، وبجانبها يقف (رستم) ومن ورائه (مصطفى) مقيدًا إلى مقعدٍ خشبيٍّ بطاقةٍ سوداء غريبة، وقد أحاطت الطاقة الســـوداء بفمه، فلم يستطع الحديث لكن الهلع أطل جليًّا من عينيه، فاستدعى (باسم) عنصر البرق وشكله في يده على شكل ســـيف؛ في تلك اللحظة دخل (ريتشارد) القصر، وهو يصيح في (باسم):

"يكفي هذا يا (باسم).. يجب أن نخرج من هنا."

لكن (باسم) قال له دون أن ينظر إليه:

"لن أخرج من هنا بدون (مصطفى)."

ثم قفز ناحية (إينور) بســـيفه وهو يهوي عليها بكل قوته، فصدت ضربته بمنجلها وهي تدور حول نفســـها برشاقةٍ لتهوي عليه بحركةٍ سريعة، فقفز (باسم) للوراء متفاديًا الضربة وهو يعيد تقييم خصمه.

خشي (ريتشـــارد) ألا يكون (باســـم) ندًّا لـــ (إينور) فركض نحوهما كي يساعد (باسم) لكن الهومنكلوس اعترض طريقه بجسده الضخم، وهو يقول بصوته الأجش:

"الثأر!"

ثم لكم (ريتشـــارد) لكمة قوية فوجد نفسه يطير للوراء ويرتطم بأحد الأعمدة الرخامية التي تزين بهو القصر، لكن (ريتشارد) اعتدل واقفًا مجددًا، وهو يمسك المفتاح المعلق حول عنقه ويصيح:

"(إلكسيوس) فلتعرني قوتك."

أضاء مفتاح (ريتشـــارد) بضوءٍ أبيض باهـــر، ثم ظهر الضوء في عينيه، وتشـــكل في يده ســـيف من الضوء الصافي، انقض به على (رستم) ليهوي بضرباتٍ سريعة على جسده، فرأى الدماء تتفجر من جسده وهو يخور في ألم، غير قادر على تجديد جسده.

لمح (باسم) بطرفي عينيه (ريتشارد) وهو يشتبك مع الهومنكلوس، فاستغلت (إينور) تشتته اللحظي لتهجم عليه بالمنجل، فتفاداه (باسم) في اللحظة الأخيرة، لكنه شـــعر بطرفه الحاد يجرح وجنته، والدماء الساخنة تســـيل على وجنته، فصرخ في غضبٍ صرخة هائلة، والرياح تدور حول جسده بقوةٍ شديدة مما أجبر (إينور) على التراجع للوراء، فانقض (باســـم) ناحيتها وبدأ يهوي عليها بســـيفه ضربات سريعة وجدت صعوبة شديدة في ملاحقتها، وبضربةٍ حاسمة انتزع (باسم) المنجل من يدها بعيدًا، فسقط على الأرض متناثرًا إلى غبار.

في الوقت ذاته حول (ريتشارد) سيفه إلى سوطٍ من نار، أحاط به جسد الهومنكلوس المثخن بالجراح، ثم توهج السوط و(رستم) يصرخ في ألم، وجســـد يتحول إلى ذراتٍ من الرماد، تناثرت في الهواء حتى اختفى تمامًا، و(ريتشارد) يلهث وهو واقف في موضعه بعد أن اختفى الضوء من عينيه وقد استغرق جزءًا كبيرًا من طاقته.

تراجعت (إينور) للوراء و(باســـم) يتقدم نحوها وغضب يطل من عينيه، وقد ارتسمت أسفلهما ظلال مخيفة، فصاح فيه (ريتشارد) من ورائه:

"يكفي هذا يا (باســـم).. فلنأخذ (مصطفى) ونرحل من هنا على الفور!"

فجأة سمع صوتًا هادرًا يصرخ:

"ماذا تظن أنك فاعل يا (ريتشارد)؟"

التفت (ريتشارد) بسرعةٍ ليجد (سليم) يقف في الشرفة التي تطل على البهو، والغضب الشديد مرتسم على وجهه وقد عقد حاجبيه قبل أن يقفز من موضعه، ليهبط في بهو القصر، فوقف (ريتشـــارد) بينه وبين (باسم)، ثم صاح فيه:

"ألم تسمعني؟"

أومأ (باسم) برأســـه وركض نحو (مصطفى) المقيد في المقعد الخشبي ونظرة رجاءٍ يائس تطل من عينيه وهو يفكر في طريقة لفك قيوده السوداء الغريبة، فجأة اتســـعت عينا (مصطفى) في ألمٍ وعدم

تصديق، ورأى (باســـم) نصلًا داميًا يخرج من موضع قلبه، ثم نظر ليـــرى (إينور) واقفة وراء (مصطفى) ثم جذبت خنجرها الذي طعنت به (مصطفى) في ظهره والدماء تسيل منه، وهي تقول بشماتة:

"لن تأخذه حيًّا!"

شـــعر (باســـم) كأن الزمن قد تجمد، وتوقفت كل الموجودات عن الحركة، وهو يشاهد الدماء تسيل من الجرح في صدره، ثم أخذ يصرخ، يصـــرخ في غضبٍ وكراهيةٍ وألمٍ وحقد، يصرخ من أعماق روحه، ومن حوله تدفقت طاقة سوداء تحطم كل شيءٍ في طريقها من زجاجٍ وقطعٍ فنية تزين القصر، فقفز (ريتشارد) للوراء وهو يحيط نفسه بدرعٍ من النور ويشعر بطاقة الشر المخيفة المتدفقة من (باسم) حتى (سليم) اضطر للتراجع أمامها وهو يضع يديه أمام وجهه ليحمي نفســـه، أما (إينور) التـــي كانت أقربهم إليه فقد اندفعت للـــوراء بقوةٍ لتصطدم بالجدار وتسقط أرضًا فاقدة الوعي.

توقف (باســـم) عن الصراخ، فهدأت العاصفة من حوله وانقشـــع الظلام بالتدريج، حتى ظهر (باســـم) واقفًا فـــي بهو القصر مطرقًا برأســـه ومن ظهره انبثق جناحان أسودان، ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ عالٍ يأتي من أغوار الجحيم:

"لقد عدت."

وما أن أنهى كلمته حتى سقط القصر كله في ظلامٍ دامس، كأن كل النور قد اختفى من العالم، وفهم (ريتشارد) الكارثة التي حدثت للتو،

لقد سـيطرت روح الشر الكامنة في (باسم) على جسده، وهو يحاول جذبهم جميعًا للبرزخ، وهذا معنـاه أن جميع الخيميائيين في خطر، فصاح في هلع:

"فلتعرني قوتك يا (إلكسيوس)."

فتشـكل وراء ظهره جناحان من ضوءٍ أبيض حلق بهما بكل قوته خارج القصـر، وهو يبحث بعينيه بين الخيميائيين المشـتبكين مع النيكرومانسر حتى رأى (عمر) مشـتبكًا مع (داجون) الذي ازدادت قوته بسـقوط القصر في الظلام، ورآه يرفع يده في الهواء، والدماء المختلفة التي سـالت من الضحايا في باحـة القصر تزحف ناحيته، وتشكلت حوله في دائرة، ثم أخفض (داجون) ذراعيه مستدعيًا بوابة ضخمة من السـماء، انفتحت بقوةٍ وخرجـت منها رياح حارة كريهة الرائحة، ثم خطا منها وحش شـيطاني من الزودياك ضخم وبشع، له وجه كالثور وجسد مليء بالشـعر، يمسك بين يديه بمطرقةٍ ضخمة، ارتسمت عليها النقوش الشيطانية ذاتها الموشومة على جسد (داجون) ثم سار بخطواتٍ ثقيلة رجت الأرض وهو يسحق الخيميائيين بمطرقته متوجهًا ناحية (عمر) فصاح (ريتشارد) فزعًا:

"اهرب يا (عمر)."

تراجع (عمر) مسرعًا بأجنحة البرق، متفاديًا مطرقة وحش الزودياك بأعجوبة، والوحش يزأر في غضبٍ محاولًا النيل منه، فاستدعى (عمر) رياحًا شـديدة أطلقها ناحية الوحش الذي رفع يديه أمام وجهه وهو

يثبت قدميه فـــي الأرض لكيلا تدفعه الرياح للوراء، اســـتغل (عمر) الفرصة ليســـلط عدة صواعق من البرق ناحية الوحش، لكنه زأر بقوةٍ وانفجرت من حوله هالة سوداء قامت بتشـــتيت قوة (عمر) ثم هوى عليه بمطرقته، فحاول (عمر) أن يشكل درعًا من الطاقة لحمايته، لكن المطرقة اخترقت الدرع وهوت على (عمر) الذي شعر بالألم في عظام جســـده كله، فلولا الدرع الذي امتص جزءًا كبيرًا من ضربة المطرقة لفارق الحياة على الفور، ثم شعر بطاقة (أونوريس) تفارقه وأجنحة البرق تختفي، لكن (ريتشـــارد) الذي رأى الضربة تهوي على (عمر) تدخل بســـرعة وحمله بين ذراعيه، وأســـرع محلقًا بعيدًا عن قصر النيكرومانسر، وهو يشعر بالألم يعتصر قلبه تجاه بقية الخيميائيين الذين سقطوا ضحية في براثن أعدائهم، أما النيكرومانسر فقد صاحوا بحماسٍ وهم يشاهدون (باســـم) يحلق في السماء بجناحين أسودين مهيبين، وانحنى بعضهم على ركبتيه وهو يقول:

"فلتحل عليك البركة في الظلام."

الفصل الرابع عشر

عودة (يوليسيس)

فتح (باســـم) عينيه، ليجد نفسه غارقًا في ظلمةٍ دامسة، لكنه كان معلقًا في الفراغ بينما كانت يداه مبسوطتان على جانبيه، كأنه مصلوب على صليبٍ خفي، شـــعر بالخوف وهو يحـــاول تذكر ما حدث؛ تذكر فجأة الغضب الذي انتابه وحصوله على الساعة الرملية وهجومه على القصر، شـــعر في تلك اللحظة كم كان مندفعًا، ولم يستطع أن يبرر تصرفاته حتى لنفسه، لقد عرض حياة الخيميائيين للخطر، وبينما هو يفكر سمع صوتًا عميقًا يقول:

"لا تلم نفسك، فأنا من دفعت عقلك لتلك المشاعر."

التفت ليجد شـــخصًا يخطو من بوابة (هرمس) التي فتحت على مصراعيها، يرتدي ملابسه الســـوداء، وقلادة الساعة الرملية المجنحة تتدلى من عنقه، وهو يقترب منه بخطواتٍ بطيئة، لم يكن هناك أي أثرٍ للباب، فسأله (باسم) في خوف:

"من أنت؟"

فقال الرجل وملامحه غارقة في الظلام:

"أنا (يوليسيس)."

شعر (باسم) بالحيرة وتساءل مجددًا:

"وأين نحن؟"

أجابه (يوليسيس):

"نحن في لا وعيك."

زادت الإجابة (باسم) حيرة، فقال له:

"ماذا تعنى؟"

أجابه (يوليسيس) بغموض:

"لقد ظلت روحي حبيسة ساعتي الرملية طويلًا حتى حررتها أنت باستخدام دمائك الخاصة، فأصبح جسدك يحمل روحي وروحك سويًّا، وما تراه أمامك الآن هو روحي."

فقال (باسم) بألم:

"ولماذا أنا؟ ماذا تريد مني؟"

تنهد (يوليسيس) وقال:

"الأمر معقد، أنا لا أريد منك شيئًا بالتحديد، فأنا لم أكن أعرف من سيعثر على ساعتي الرملية، لكن بما أنك أصبحت عالقًا معي في هذا الأمر، فمن حقك أن تفهم كل شيء."

ثم صمت قليلًا قبل أن يكمل:

"لقد ولدت في أثينا لعائلـــةٍ من النيكرومانتيا، لم أختر قدري كما لم تختر أنت قدرك، علومنـــا وتعاليمنا كانت محرمة، لكنني لم أصبح نيكرومانتيًّا بدوري إلا بعدما زارني (مورفيوس) في أحلامي، وعرفت أن سبب وجودي في هذا العالم هو إعادة (مورفيوس) إلى عالمنا مرةً أخرى، حتى جـــاء اليوم الذي قُتل فيه كل أفراد عائلتي أمام عينيّ كما رأيت أنت منذ قليـــل، لكن عندما يموت واحد من النيكرومانتيا، يختار شـــخص بمجرد موته تنتقل كل علومه ومعارفـــه إليه، وفي اللحظة التي أعدمت فيها عائلتي، لم يكن متبقيًا منهم ســـواي، فقمت بطقسٍ دمويٍّ أخير حفظت به معارفهم وعلومهـــم من الضياع، وأمام تمثال (مورفيوس) في أثينا أقسمت على الانتقام!"

ثم التفت إلى (باسم) فبدأ يلمح شيئًا من ملامحه، فلقد لمح العينين الزرقاوين الباردتين، وخصلات الشـــعر الصفراء أسفل غطاء الرأس، وهو يقول:

"هل تســـتطيع تصور مشاعر هذا الطفل الصغير؟ أن تقتل عائلته أمام عينيه، ويحمل على عاتقه إكمال الطريق التي سارت فيه وحده؟"

لم يجبه (باسم)، فأكمل (يوليســـيس) كأنه لم يكن ينتظر إجابة لسؤاله:

"ظللت في أثينا متخفيًا عن الأعين، أمارس طقوس عائلتي ســـرًّا، حتى زارني (مورفيوس) وأمرني أن أغادر أثينا، لأبدأ رحلتي في إعادته إلى عالمنا، كانت مرحلتي الأولى هي بلاد فارس لدراسة التنجيم على

أيدي تلاميذ زرادشت، وظللت هناك عدة سنوات أدرس وأتعلم دون أن يشعر أحد أنني واحد من النيكرومانتيا حتى أتقنت التنجيم، ثم سافرت بعد ذلك إلى الهند لإتقان السـيمياء على أيدي المعلمين البوذيين، ولم يتبق في رحلتـي إلا خطوة واحدة، وهي تعلم الخيمياء في مصر على أيدي كهنة (تحوت) وهناك عشت بينهم متنكرًا مطلعًا على أسرارهم، حتى علمت أن (مورفيـوس) لن يعود بدون الحصـول على حكمة (هرمس) المدونة في اللوح الزمردي."

صمت (يوليسيس) قليلًا كأنه يشاهد ما يرويه أمام عينيه، ثم واصل وكأنه أصبح يخاطب نفسه:

"فشـلت مهمتي في مصر بعد أن اسـتطاع كبير كهنة (تحوت) إيقافي، وهكذا وجدت نفسـي مسـجونًا في معبد (تحوت) منتظرًا الهرامسة ليقوموا بإعدامي كما أعدموا كل عائلتي، ولم يكن هناك أحد أسـتطيع نقل علومي ومعارفي إليه، لذا قررت أن أفعل شيئًا لم يفعله أحد من قبل، باسـتخدام ما تعلمت من سحرٍ قمت بعمل سحرٍ نهائي، لختم روحي وعقلي وذاكرتي وعلومي داخل شيءٍ مادي وهي ساعتي الرملية التي أحملها حول عنقي، مستخدمًا دمائي الخاصة ولغة قديمة تعلمتها من (مورفيوس) ذاته في أحلامي، فلا يمكن أن تتحرر روحي مرةً أخرى إلا باختلاط دماء شخصٍ آخر بدمائي، وظللت قرونًا بعيدًا في ظلمات البرزخ منتظـرًا انبعاثي، وأخيرًا وبعد طول انتظار بُعثت

مرةً أخرى في جسدك، وأصبحت جاهزًا من جديد لإعادة (مورفيوس) إلى هذا العالم."

تذكر (باسم) حديث (ريتشارد) عن (مورفيوس) وقال:

"لكن (مورفيوس) يرغب في جلب الشر إلى هذا العالم."

تجلى غضبٌ شديدٌ في نبرات (يوليسيس) وهو يصيح بصوتٍ هادر مستنكر:

"الشر؟ (مورفيوس) هو الحاكم الشـــرعي لهذا العالم، وبعودته سينتقم من هؤلاء الذين سلبوه عرشه، وعلى رأسهم (إلكسيوس)."

اندفعت رياح شديدة من جسد (يوليسيس) بسط (باسم) يديه أمام وجهه لحماية نفسه، لكن (يوليسيس) استعاد هدوءه، ثم قال مكملًا:

"كل شيءٍ ســـار كما خططت له تمامًا؛ لقد استيقظت منذ اللحظة الأولى التي خالطت فيها دماؤك الســـاعة الرملية، لكن هذا الخيميائي شـــعر بوجودي رغم أنه لم يدرك كنهه الحقيقي، فاستخدم الخيمياء لحبـــس روحي عميقًا في لا وعيك، لكن هذا لم يمح وجودي تمامًا، لقد اســـتمدت روحك بعض القوة من روحي في تدريبك على التحكم في العناصر الأربعة، حتى اســـتطعت التحكم بالأثير ذاته في نهاية الأمر، وبعد أن امتلأت روحـــك بالغضب والكراهية والرغبة والانتقام، لم يعد هناك شيء قادر على حجب روحي ومنعها من الاستحواذ على جسدك."

قال (باسم) بضعف:

"والآن ماذا ستفعل؟"

ضم (يوليسيس) قبضته اليمني، وهو يقول:

"الآن سنعيد (مورفيوس) ليجلس على عرشه المستحق، أما هؤلاء الحرس الأكاشـــيين الخونة الذين انتزعوا عرشـــه ونفوه إلى البرزخ، فإنهم سيدفعون ثمن خيانتهم."

ثم التفت يحدق في الظلام النهائي، ويقول بصوتٍ تردد صداه:

"سيدفعونه كاملًا."

ومـــع كلماته الأخيرة أخذ (يوليســـيس) يضحـــك ضحكة عالية، فأغمض (باســـم) عينيه وصدى ضحكة (يوليسيس) يتردد من حوله، حتى تلاشى الصوت تمامًا، وعندما فتح عينيه اكتشف أن (يوليسيس) قد اختفى بدوره، وتركه وحده مصلوبًا في قلب تلك الظلمة الهائلة.

***

وسط ظلام البرزخ تراص ثلاثة عشر عرشًا، وقد جلس (يوليسيس) على عرش (ســـليم) الذي وقف بجانبه، وعلى وجهه ابتســـامة فخر باعتباره محرر (يوليسيس) بينما نظر الآخرون ناحيته بمهابة.

قال (يوليسيس) بنبراتٍ تحمل مزيجًا من الفخر والعظمة:

"أنا (يوليســـيس).. مبعوث (مورفيوس).. أنا من حويت الخيمياء، والسيمياء والتنجيم، وأمسكت بيدي لوح (هرمس) الزمردي، ووهبني (مورفيوس) جناحيه الأسودين."

قال أعضاء المجلس النجمي في صوتٍ واحد:

"فلتحل عليه البركة في الظلام."

اعتدل (يوليسيس) على عرشه، وبسط جناحيه وهو يقول:

"لقد ظللت وأسلافي قرونًا ننتظر هذه اللحظة، كي نحرر (مورفيوس) وكي يدفع الخيميائيون والهرامسة الثمن، فلن تذهب تضحية أسلافي هباءً."

كانت كلماته الأخيرة تقطر غضبًا وألمًا ورغبةً في الانتقام، فقال له رئيس المجلس النجمي:

"ما هي تعليماتك الآن، يا سيد (يوليسيس)؟"

أصغى له الجميع باهتمامٍ واحترامٍ، وهو يقول:

"إن معرفة عائلتي المتراكمة لعقودٍ طويلة، ورحلتي التي جبت فيها أركان الأرض الأربعة، كاشفًا أسرار الأكاشيين والخيميائيين، هي ما مكنني من معرفة سر تحرير (مورفيوس) من سجنه الأزلي، لقد كدت أن أفعلها منذ آلاف السنوات، وما زال سيدي منتظرًا، أعرف أن السنوات ليس لها قيمة في عمره الذي يوازي عدة دورات من عمر الأكوان، لكنني أعرف أنه مثلي متعطش للدماء والانتقام، ولذا سنقوم سويًا بمعرفتي ومعاونة (سليم)، بتحرير (مورفيوس) في مصر، وأول خطوة لتحريره هي الحصول على اللوح الزمردي الذي يحوي علم

(هرمس).. هذا اللوح الذي كدت أضع يدي عليه منذ قرونٍ طويلة، وآن الأوان لإصلاح هذا الخطأ، وإعادة الحظ العاثر إلى مساره الصحيح."

ارتفعت همهمات بين الجالسين حول المائدة بينما قال (سليم) وهو ينحني في احترام:

"أمرك يا سيد (يوليسيس)."

وبداخل عقل (سليم) كانت تدور الأفكار حول النفوذ الذي سيحصل عليه عندما يبعث (مورفيوس) من جديد ويعرف دوره في تحريره؛ لعله يصبح رئيس المجلس النجمي، من يدري؟! نعم، من يدري؟!

***

وصلت الأنباء إلى الخيميائيين بحدوث حادثة عنيفة بالقرب من الأشمونين، قرب موضع اكتشاف الساعة الرملية، كانت الأخبار تروي عن عنفٍ شديد حدث في المكان، راح ضحيته كل المسؤولين عن هذا الموقع الأثري، وقد تشوهت الجثث بشكلٍ وحشي، وبعض الروايات الغامضة تروي عن رجلٍ بجناحين أسودين، وقد أثارت تلك الأخبار ضجة كبيرة واضطرابًا في أوساط الخيميائيين، وحده (ريتشارد) كان يعرف سر هذه الحادثة الغامضة، ما حدث بالأشمونين له علاقة بما حدث لـ (باسم) في قصر (سليم) لكن ما الذي يسعى له النيكرومانسر في موقع خمون؟ ليست الساعة الرملية بالتأكيد فهي بحوزتهم! هناك شيء آخر بالتأكيد.

قال له (آدم العطار) وهو يعقد حاجبيه:

"اللوح الزمردي بالتأكيد!"

نظر إليه (ريتشارد) بدهشة، فأكمل (آدم):

"لو أن هذه الروح قديمة كما تقول، ومتزامنة مع تاريخ الساعة الرملية، فهذا يعني أنه كان موجودًا في الموضع القديم للوح الزمردي قبل أن ينقل إلى هنا في مكتبة الإسكندرية، لا شك أنه لا يعرف ذلك بعد، ولكنه آجلًا أو عاجلًا سيأتي، وهذا يعني أن مكتبة الإسكندرية في خطر، وربما الإسكندرية كلها، يجب أن نكون مستعدين لذلك."

كان الاحتمال مخيفًا للغاية، لكنه منطقيًّا للغاية أيضًا، لا يوجد تفسير آخر، وهكذا ألقى (آدم، وريتشارد) أوامرهما للخيميائيين، فتأهب الجميع لصد الهجوم المحتمل على المكتبة.

أما (آدم العطار) ومجموعة من أقوى الخيميائيين، فقد ظلوا في أعمق طابق من مكتبة الإسكندرية، لحماية اللوح الزمردي في حال فكر (يوليسيس) في الاستيلاء عليه، أوامر الهرامسة واضحة، عليهم حراسة اللوح الزمردي بأرواحهم، إنه التاريخ القديم يتكرر من جديد.

أخذ (ريتشارد) يتحرك بعصبيةٍ بين الخيميائيين ملقيًا أوامره، بأعماقه كان يشعر أنه مسؤول بشكلٍ أو بآخر عما حدث لـ (باسم) وكان إحساسه بالذنب يكاد يقتله، ولم يخفف عنه بعض الشيء إلا (مارية) التي كانت دائمًا تحاول احتواء غضبه وحزنه، أما (عمر) فقد

كان يرغب في استعادة صديقه القديم، ورغم إصابته في الهجوم على القصر، إلا أنه أصر أن يشـــترك في حماية الإسكندرية، كان الجميع متأهبين وقد ألهب التوتر أعصابهم، منتظرين اللحظة الحاسمة.

وفي مثل هذا الوقت العصيب وصل إلى الإســـكندرية رســـول من اليونان، يحمل إلى (ريتشارد) صندوقًا مرسلًا إليه من الهرامسة، ولم يقل له الرسول سوى جملة واحدة:

"أحسن استخدامه وحافظ عليه."

فأمسك (ريتشارد) الصندوق بمهابة، وقال:

"أفهم ذلك جيدًا، لا تقلق."

عقد (آدم العطار) حاجبيه، وقال متسائلًا:

"ما هذا؟"

نظر (ريتشارد) مليًّا إلى الصندوق، والنقوش الخيميائية المنقوشة عليه، ثم قال:

"هذا قد يكون مفتاح خلاصنا من هذا الكابوس."

الفصل الخامس عشر

تحـــرر الرعـــب

فجأة وبلا تمهيد؛ تحرر الرعب من عقاله في الإســـكندرية، ففي قلب النهار سقطت الإسكندرية في ظلامٍ دامس، وارتطمت العديد من السيارات ببعضها البعض، وانحرف بعضها في عنفٍ ليرتطم بالمباني، أو بأعمدة الإنارة، ونظر الناس في رعبٍ إلى الســـماء عديمة النجوم محاولين فهم ما يحدث، وحدهم الخيميائيون فهموا ما هـــم مقبلون عليه؛ لقد جُذبت الإسكندرية بأكملها إلى البرزخ؛ وبصوت فرقعات قوية تصم الآذان هبطت البوابات الشيطانية من السماء، واندفعت بصوت صرخات تأتي من قلب الجحيم ذاته، واختلطت الصرخات القادمة من البوابات، بصرخات البشر الذين يشاهدون ذئابًا، ووحوشًا شـــيطانية تخرج من البوابات، وأعينها مشتعلة بلون النيران والدماء، انقضت الوحوش على البشر الذين سقطوا فريسة الرعب والخوف لتفتك بهم، وســـالت الدماء في الطرقات، وكلما سالت الدماء أكثر، كلما ازدادت قوة النيكرومانسر ووحوشهم.

تراجعت الشـــرطة يعتريها الرعب مما يحدث أمامها، بينما تقدم الخيميائيون يقاتلون بالعناصر الأربعة، واندفعت الســـيوف النارية

وأسهم البرق وعواصف الرياح، وجلاميد الصخر تجتاح النيكرومانسر، ومن الناحية الأخرى يرد النيكرومانســـر بسحرهم الأسود ووحوشهم الشيطانية، فتناثرت الجثث من كلا الطرفين في كل مكان.

تقدم (عمـــر، ومارية) يقود كل واحدٍ منهما فيلقًا من الخيميائيين، محاولين تشـــكيل دائرة للحد من انتشـــار النيكرومانسر في طرقات الإسكندرية، أخرجت (مارية) زجاجة إكسير وشربت ما بها، فأصبحت تحلق بخفة، كمـــا أخرجت عدة زجاجات أخرى أخـــذت تلقيها على المخلوقات الشيطانية، فكانت تحترق بمجرد لمسها، بينما حلق (عمر) بجناحي (أونوريس) بلونهما الأزرق وهـــو يضرب وحوش الزودياك بصواعق البرق، أدرك النيكرومانســـر خطورتـــه فأحاط به مجموعة منهم، لكنه كان أسرع وأخذ يناور وهو يضربهم بألسنة البرق دون أن يستطيعوا خدشه.

وفجأة؛ ارتفعت ضحكات شيطانية في السماء فرفع (عمر) عينيه ليجد (يوليســـيس) في جسد (باســـم) يحلق بجناحيه الأسودين في سماء الإسكندرية، ومن عنقه يتدلى مفتاح الخيميائيين الفضي وساعة (مورفيوس) الرملية في مزيجٍ غريبٍ ومخيف، كان يشـــاهد ســـاحة المعركة ويستمتع بالدماء المسفوحة، وضحكاته تملأ الهواء، ثم أخذ يترنم ترنيمة قديمة، بلغةٍ لا يجب أن ينطقها لسان بشري، بينما كانتا القلادتان تتأرجحان أمام صدره.

رأى (عمـــر) بنظراتٍ مرعوبة أنهار الدماء وهي تنســـاب وتتجمع وتتشـــكل مع كل حرفٍ من حروف ترنيمة (يوليســـيس).. لم يعرف (عمر) ما الذي يحاول (يوليسيس) فعله، لكنه ليس شيئًا جيدًا بالتأكيد، عليه إيقافه بأي ثمن، عليه أن يحرر صديقه (باسم) من سجنه!

اندفع (عمر) بجناحيه تجاه (يوليسيس) وهو يلوح بقوةٍ بسيفٍ من البرق تفاداه (يوليسيس) ببساطة، وهو يقول بسخرية:

"هل يجرؤ خيميائـــي ضعيف مثلك على الهجـــوم على مبعوث (مورفيوس)."

فصاح (عمر) في غضب:

"أنت و(مورفيوس) ستذهبان إلى الجحيم."

ثم انقض مرةً أخرى على (يوليسيس) الذي تفادى هجمته في يسر، رفع يده لأعلى فتشـــكل بها سيفٌ من العقيق الأسود به نقوش حمراء كتلك التي على ساعته الرملية، ثم انقض على (عمر) بسرعةٍ خاطفة، فجرحه جرحًا عميقًا في جانبه تفجرت منه الدماء، فتراجع (عمر) في ألمٍ ثم صاح والدماء تسيل من بين شفتيه:

"(باسم) أنا أعرف أنك هناك في مكانٍ ما، لا تدعه يسيطر عليك."

ضحك (يوليسيس) ساخرًا، وقال:

"لقد ذهب (باسم) لن يسمعك."

لكن (باسم) بأعماقه كان يشعر بنداء صديقه (عمر) إلا أنه سجين داخل لا وعيه، بينما روح (يوليســـيس) تســـيطر على جسده، إنه هنا مصلوب في الظلام اللامتناهي لا يقدر على شيء.

فجأة انقض (يوليسيس) مجددًا على (عمر) بسيفه الأسود، لكنه كان مستعدًّا له هذه المرة، فصد ضربته بسيفه، ورغم ذلك شعر بالضربة القوية تزلزل كيانه وتجتاح جسده كله، أدرك (عمر) أنه يواجه خصمًا يفوق قدرته على المواجهة، وتيقن أن لا فرصة له أمامه، لكنه لم يستسلم أو يتراجع، استمرت المناورات بين (يوليسيس، وعمر) والأخير يحاول تجنب ضرباته قدر المستطاع، لكنه شعر بالضعف والخدر يسري في أطرافه، وفجأة قطع سيف (يوليسيس) الأسود ذراع (عمر) الممسكة بسيف البرق، فشعر بألمٍ حارق يفوق كل شيء، وذراعه تنفصل عن جسده، فسارع بتشكيل سيفٍ آخر من البرق في اليد الأخرى، لكن (يوليسيس) عاجلها بضربةٍ من سيفه ليقتطعها بدوره، ثم غرس سيفه الأسود في قلب (عمر) بعدها تراجع وسيفه الأسود يتلاشى، وجسد (عمر) الميت يهوي ناحية الأرض.

***

أمام مكتبة الإسكندرية التي تحولت إلى فوضى، كان الخيميائيون يصدون هجوم النيكرومانسر، وفجأة تجمدت الدماء في عروقهم، وهم يستمعون إلى ترنيمة (يوليسيس) فشعروا بالخطر وهم يتطلعون ناحية الصوت، ومن بعيد لمحوا (عمر) يسقط من السماء بعد أن طعنه (يوليسيس) في قلبه، فسرى الرعب بينهم وهم يلتفتون حولهم يبحثون عن (ريتشارد) الذي بدا أنه قد اختفى منذ بدء المعركة.

وفجأة ظهر (ريتشـــارد) خارجًا من بوابات مكتبة الإســـكندرية، وهو يمســـك في يده عصا تحتوي على ثعبانين يلتفان حول بعضهما البعض، كما أن أعلاها جناحان؛ صولجان (هرمس).. صولجان القوة الذي لم يره أحد منذ زمنٍ بعيد، وفجأة صاح (ريتشارد) بكل قوته:

"(هرمس).. أعرني قوتك!"

فتدفق ضوء قوي مـــن الصولجان، أخذ يدور حول (ريتشـــارد) وتشكل وراء ظهره جناحان أبيضان، أقرب إلى الأجنحة في شكلهما، وقد اختفت حدقتا عينيه، والضوء الأبيض الباهر يندفع منهما.

وهكذا اندفع (ريتشارد) في الهواء محلقًا بجناحيه فوق المعركة، حتى وقف أمام (يوليسيس) في جسد (باسم) وهو يقول:

"ستنتهي شرورك هنا يا (يوليسيس).. ستدفع ثمن ما فعلته بـــــ (باسم) وثمن قتلك لـــــ (عمر)."

نظر (يوليســـيس) إلى جناحـــي (ريتشـــارد) بلونهما الأبيض، وصولجان (هرمس) في يده، فأدرك أن هـــذا الخيميائي مختلف عن الآخرين، لكنه قال بسخرية:

"هل تظن أنك تستطيع أن توقفني؟"

فأكمل (ريتشارد) كأنه لم يسمعه:

"سأضع حدًّا لك هنا والآن."

انقض (يوليسيس) على (ريتشارد) بسيفه الأسود، فرفع (ريتشارد) صولجانه لأعلى، فتشـــكلت حوله كرة من الطاقة، اصطدم بها سيف

(يوليسيس) بشـــرارةٍ قوية، لكنه لم يبد على درع الطاقة أنه قد تأثر بالضربة، فعقد (يوليســـيس) حاجبيه وكرر الضربة بسيفه، ليتطاير الشرر مرةً أخرى، فصاح (يوليسيس):

"لمَ لا تخرج من مخبئك، وتواجهني كالرجال؟"

فصاح (ريتشارد):

"سأواجهك لكن ليس هنا!"

لم يكن (ريتشـــارد) خائفًا من مواجهة (يوليسيس) لكنه لم يرغب في قتله، فهذا ســـيؤدي لموت (باســـم) بالتأكيـــد، وكان هذا آخر ما يريده؛ يجب أن يجد طريقة ليخلص جســـد (باسم) من سيطرة روح (يوليســـيس) عليه، ألقى نظرة أخيرة على أرض المعركة أســـفلهما، وشـــاهد الفوضى والضحايا والدماء، لم يعـــد لديه الكثير من الوقت، فرفع صولجانه وهو يترنم بصوتٍ عميق وبلغةٍ عتيقة:

"ذلك الذي في الأسفل يساوي ذلك الذي في الأعلى، وذلك الذي في الأعلى يساوي ذلك الذي في الأسفل، لتحقيق آيات شيءٍ وحيد."

بدأت الســـماء والأرض ترتج على إثر حديثه، و(يوليسيس) ينظر إليه في فزعٍ وهو يسد أذنيه، لكن (ريتشارد) لم يتوقف عن ترنمه.

"سوف يزول عنك كل جهل، هذا الشيء الأوحد هو القوة الأقوى من بين أقوى القوى، إذن فاسمي (هرمس) مثلث العظمة، أنا الذي أمتلك الأجزاء الثلاثة لحكمة العالم بأسره."

شعر كل من سمع الترنيمة بالسلام، والضوء يحوم حولهم، ورائحة جميلة تعبق المكان، وفجأة سُـــمِعَ صوت بوقٍ يتردد صداه من أغوارٍ سحيقة في الكون، ثم هبط من السماء كتاب ضخم رُسِمَ عليه ثعبانان متقاطعان، أعلاهما جناحان مبســـوطان، وانفتح الكتاب بقوةٍ ليجذب (يوليسيس) و(ريتشارد)، ثم انغلق الكتاب عليهما مرةً أخرى.

شعر (يوليســـيس) بالرعب عندما وجد نفســـه في عالمٍ غريب لا يستطيع تمييزه، كان هناك ضوء ســـاطع يعمي عينيه عن كل شيء، فقال لأول مرة بخوفٍ وقد رفع يده أمام عينيه:

"أين أنا؟"

نظر إليه (ريتشـــارد) الذي أصبحت عيناه بيضاوين بالكامل، ولم يبد متأثرًا بهذا الضوء، وقال بصوتٍ تردد صداه كألف صوت:

"أنت في عالم الأكاشا."

شعر (يوليسيس) بالخوف عند سماع هذا الاسم، وحاول استدعاء سيفه الأسود، لكن واجهته صعوبة شديدة في ذلك، كأنه يستدعيه عبر حاجزٍ قوي، إلا أن الســـيف تشكل في يده بالنهاية، ثم خفق بجناحيه الأسودين وهو يعاود الهجوم على (ريتشارد) مستجمعًا كل قوته، تغير شكل الصولجان في يد (ريتشـــارد) إلى سيفٍ يبرز جناحان أبيضان من مقبضه، وانقض بدوره على (يوليسيس) وهو يهوي بسيفه بضربةٍ قوية، صدها (يوليسيس) بسيفه، لكنه شعر بها تزلزل كيانه.

استـــمر الصراع والضربات المتبادلة لوقـــتٍ طويل، وبدأ الخوف يتسلل لقلب (يوليسيس) فقال يائسًا:

"أنت لن تستطيع هزيمتي، أنا مبعوث (مورفيوس)!"

فقال له (ريتشارد) وعيناه تنفذان إلى روح (يوليسيس):

"أنت مجرد طاقة قديمة من الغضب والكراهية والحقد، أنت مجرد ظل لـــ (مورفيوس)."

صاح (يوليسيس) في غضب:

"أنت كاذب، أنا لست ظلًّا."

أكمل (ريتشارد) كأنه لم يسمعه، وقال:

"لهذا أحضرتك إلى هنا، لا يجب أن يحمل (باســـم) الصغير عبئك، فقد عرفت أن هـــذا هو عبئي أنا منذ أن رأيتـــك، عبئي أن أحملك في روحي."

فجأة ازدادت حدة الضوء الأبيض، وشـــعر (يوليسيس) بالإجهاد، هذا ما كان يهدف إليه (ريتشـــارد) منذ البداية، إضعافه وليس قتله، شعر (يوليسيس) بألمٍ شديد وحاول الهرب، لكن (ريتشارد) لم يمهله، واتســـع جناحاه بلونهما الأبيض وهو يحيط جسد (باسم) بهما، شعر (يوليسيس) بألمٍ حارق فتمسك بســـاعته الرملية يستمد منها بعض القوة، لكنه شعر بروحه تتســـلل منه وتنجذب بقوة نحو (ريتشارد) وفجأة انفتح الكتاب مرةً أخرى، ولفظ جســـدي (ريتشارد) و(باسم) وسقط كلاهما على الأرض وسط ذهول الجميع.

ركضت (مارية) تجاههما ومعها مجموعة من الخيميائيين، والكل ينظر إليهما في مزيجٍ من الرهبة والخوف والترقب، تحسست (مارية) نبضهما وأدركت أن كليهما على قيد الحياة، وفجأة تشـــققت الساعة الرملية المعلقة حول عنق (باسم) قبل أن تنفجر متناثرة في ذراتٍ من غبار، ثم فتح عينيه ببطءٍ وصعوبة، وقد اختفى الشـــر والجنون الذي كان يغطي عينيه عندما سيطرت عليه روح (يوليسيس) وظهرت عليه الحيرة والارتباك وهو ينظر إلى جسد (ريتشارد) الملقى بجواره، قبل أن يقول بصوتٍ منهك:

"ماذا حدث؟"

عرفت (مارية) فـــي عينيه ونبرات صوته (باســـم) الذي تعرفه، فشعرت بالفرحة الشديدة وهي تقول:

"حمدًا لله على سلامتك."

ثم نظرت إلى (ريتشـــارد) وأصابعه متشـــبثة بالصولجان الذي استعاد هيئته الأولى، وشرحت لـــ (باسم) ما حدث بكلماتٍ قليلة، وهو ينصت لها باهتمام، ثم نظر إلى المعركة الدائرة حولهما وهو يقول:

"لم ينته الخطر بعد."

فرغم هزيمة (يوليســـيس) إلا أن الفيكرومانسر لم يتراجعوا بعد، وكان يعرف أن (ســـليم) لا يزال هناك يحركهم، عليه وضع حدٍّ للأمر على الفور، كان يشعر بالذنب والمســـؤولية تجاه ما حدث، وشعرت (مارية) بما يعتمل في صدره فاحتضنته وقالت:

"لا تحمل نفسك فوق طاقتها."

أطرق (باسم) برأســـه، ثم نظر إلى جسد (ريتشارد) الراقد أرضًا، فاقترب منه وأمســـك بصولجان (هرمس) فشعر بطاقةٍ كبيرة تسري في عروقه، وبرز جناحان بلونٍ أبيض من ظهره، فقال لـــ (مارية):

"سأضع حدًّا لهذه المعركة الآن."

كان (ســـليم) واقفًا يشـــاهد المعركة حتى اختفى (يوليســـيس) و(ريتشـــارد) داخل هذا الســـجل العظيم، وبعدما خرج (باسم) مع (ريتشارد) أدرك أن (يوليسيس) قد فشل، إلا أن رجلًا كـــ (سليم) لم يكن ليستسلم بسهولة.

رفع (ســـليم) يده لأعلى والدماء المراقة في الشوارع تتدفق نحوه، وطاقة الخوف والفزع المنبعثة من نفوس الناس تتكثف في ســـحبٍ ســـوداء أحاطت به، كل هذه الطاقة السوداء ستمكنه من تنفيذ طقسٍ قديم، طقس استدعاء الزودياك سادة النجوم، الذين يرمز إليهم الناس بالأبراج الفلكية، وكان استدعاؤهم جميعًا يتطلب طاقة عظيمة لا يقدر عليهـــا إلا (مورفيوس) ذاته، إلا أن كل هذه الدمـــاء وكل هذا الخوف سيسمح له إن نجح أن يستدعي واحدًا منهم فقط، إنه فرصته الوحيدة للنجاح ولن يضيعها.

صاح (سليم) بصوتٍ عميق كأنه يأتي من أغوار الجحيم:

"سادة النجوم، اسمعوا النداء!"

فجأة تشـــكلت الدماء الحمراء والسحب السوداء الكثيفة على شكل كرة، تجمدت سريعًا حتى أصبحت كحجرٍ من الياقوت الأحمر الداكن، وحول هذا الحجر تشـــكل باب يرتسم عليه طلاســـم معقدة مخيفة انجذبت نحوه كل الأنظار، وهنا صاح (سليم) بصوتٍ عميق:

"تحرر يا ليبرا!"

ومع آخر حروف كلمته انفتح الباب بدويٍّ عنيف ورياحٍ ســـاخنة، اندفع على إثرها العديد من الأجســـاد التي تمزقت تحت وطأة الضغط العنيف أو تحطمت على إثر ارتطامها بالمباني التي تصدعت بشقوقٍ متعددة، وانحنت أعمدة الإنارة بشـــكلٍ مخيف، ثـــم خرج من البوابة وحش عظيم عملاق، يحمل في كل يد من يديه فأسًـــا ضخمة متصلة بجسده بسلسلة معدنية عظيمة وهو يزأر بصوتٍ هادر يصم الآذان.

شعر (باسم) بالطاقة العظيمة المتدفقة من (ليبرا) وسيطرت على ذهنه فكرة واحدة "هذا واحد فقط من الزودياك، فما بالك بالبقية!" ثم قال وهو يبسط جناحيه:

"سأتولى أمره."

ارتفع (باســـم) بجناحيه في السماء لمواجهة هذا الوحش النجمي المخيف القادم مـــن تلك العوالم المظلمة، قبض على الصولجان بقوة فابيضت مفاصل أصابعه وهو يدور حول الزودياك العملاق المسمى (ليبرا) هذا الذي يعرفه العامة (باســـم) بـــرج الميزان، هوى (ليبرا)

بفأسه على (باســـم) فتراجع للوراء وهو يبحث عن نقطة ضعفٍ لهذا الوحش الجامح.

تقدم (ليبرا) للأمام، وهو يدهس بقدميه العملاقتين كل ما يقع في طريقه، وبضربةٍ قوية من فأسه حطم جزءًا كبيرًا من مكتبة الإسكندرية، فأشار (ســـليم) إلى (داجون) الذي كان مستعدًّا لهذه اللحظة، فهجم هو ومجموعة النيكرومانســـر على مكتبة الإسكندرية للحصول على اللوح الزمردي، اســـتكمالًا لخطة (يوليســـيس) رغم رحيله، لمحهم (باســـم) يتقدمون ناحية المكتبة، لكنه لم يستطع أن يمنعهم قبل أن يحل مشكلة هذا الوحش النجمي الذي يواجهه، فتقدم بكل قوته ناحية (ليبرا) ونيران الغضب والانتقام تملؤه.

كان (آدم العطار) ورجاله في انتظـــار ذلك الهجوم، ونظر (آدم) ناحية (داجون) وميزه بوشومه، وقال له بجمود:

"إذن فأنت هذا الحارس الأسطوري."

لم يعلق (داجون) على هذا الإطراء، وتشـــكل في يديه منجل، وهو يهجم ناحية (آدم) الذي تشـــكل في يديه ســـيفان من الصخر على كل واحدٍ منهما رموز هرمســـية صد بهما منجل (داجون) واشـــتبك الخيميائيون الآخرون مع النيكرومانسر، مدافعين بحياتهم عن اللوح الزمردي.

وفي هذه الأثناء، كان (باســـم) يواجه (ليبـــرا) تلك القوة المخيفة المفزعة، اســـتدعى عنصر الهـــواء وهو يلـــوح بالصولجان فتحول

الهـــواء إلى نصالٍ حادة، لكنها لم تؤثر فـــي هذا الوحش، بينما كانت خطوات (ليبرا) ترج الأرض رجًّا، كان الرعب مجسمًا يسير في شوارع الإسكندرية، يدمر كل شـــيءٍ وهو يحاول اقتناص (باسم) الذي كان يحلق بجناحيه في كل مكان.

***

التفت (آدم) حوله فوجد أنه لم يتبق ســـواه و(داجون) فقد سقط بقية الخيميائيين والنيكرومانسر صرعى؛ وقد زادت الدماء (داجون) قوة فتوهجت وشـــومه بضوءٍ أحمر، أما (آدم) فقد اشـــتعلت دماؤه بالغضب لموت تلاميذه، فصاح بصوتٍ اخترق حجب الأثير:

"فلتمديني بقوتك يا (كالي)."

شعر بالقوة العتيقة تتدفق في عروقه ثم خرج من ظهره يدان من الصخر، في كلٍّ منهما سيف صخري آخر، فقفز بأيديه وسيوفه الأربع تجاه (داجون) الذي شـــعر أن قوة (آدم العطار) قد تضاعفت عشرات المرات، وبدأ يصد ضربات سيوفه الصخرية بمنجله بصعوبةٍ شديدة، وهو يتراجع أمام تلك القوة المخيفة، حتى وجد نفســـه يسقط أسفل قدمي (آدم العطـــار) غير قادر على المواصلة، فأغمض عينيه منتظرًا مصيـــره، فنظر إليه (آدم) نظرةً أخيرة ثم هوى عليه بســـيوفه الأربع ليصيبه كل واحدٍ في موضعٍ مختلف من جســـده، فانطفأت وشـــومه ولفظ أنفاسه الأخيرة.

حينها ســـقط (آدم) على الأرض وهو يلهـــث وذراعاه الصخريان يختفيان، فاستدعاء قوة (كالي) يتطلب مجهودًا خارقًا؛ ثم ألقى نظرة

أخيرة ليطمئن على اللوح الزمردي، قبل أن يستسلم أخيرًا للظلام الذي يكتنف عقله ويسقط فاقدًا الوعي.

***

حلق (باســـم) بجناحين أبيضين من الطاقة ليرى الإســـكندرية وقد تحولت إلى أنقاض، وشـــاهد جثث الأبرياء تملأ الطرقات، فشعر بالغضب يتدفـــق في أعماقه، لكنه تذكـــر كلام (مارية): "يجب على الخيميائي أن يركز على الطاقة الإيجابية لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لينســـجم مع عناصر الطبيعة من حوله." فمد يده ليمســـك السلسلة المعلقة حول عنقه على شكل مفتاحٍ مجنح، وحاول أن ينبذ من نفسه طاقة الغضب والرغبة في الانتقام، لم يعد بداخله سوى الرغبة النقية الخيرة في إنقاذ من حوله من الأبرياء، واختفت الحدقتان من عينيه ولم يعد فيهما سوى ضوءٍ أبيض صافٍ.

كانت (مارية) الجالسة بجانب جسد (ريتشارد) تنظر إليه، فضمت يديها إلى صدرها وبدأت تمده بطاقتها لمساعدته، وكذلك فعل العديد من الخيميائيين، وتعلقت قلوب البشر بهذا الذي يواجه الوحش المخيف منفردًا وقد شعروا فيه بالخلاص.

كما شعر (باســـم) بطاقةٍ هائلة تتدفق في أعماقه، واكتست ظلمة البرزخ من حوله بالشـــموس والنجوم والســـديم، وشعر كل من رأى المشهد أنهم في قلب الكون ذاته، وتراجع العملاق (ليبرا) للمرة الأولى في خوف.

تقدم (باسم) محلقًا للأمام وصولجان (هرمس) بين يديه، ثم لوح به للأمـــام فاندفعت منه موجة من الطاقة البيضـــاء الصافية، فمرت الموجة عبر ذراع (ليبرا) اليمنى لتمزقها، فسقطت الفأس على الأرض بدويٍّ هائل، وزأر الوحش في ألمٍ وهو يلوح بيده اليســـرى في مزيجٍ من الغضب والخوف، فتحاشى (باسم) تلك القوى الوحشية الجامحة بخفةٍ ورشـــاقة وهو يحلق في الهـــواء، فتجاوزته الضربة لتدمر أحد الأبراج الســـكنية المرتفعة، فلوح بصولجانه مرةً أخرى لتندفع موجة جديدة من الطاقة تمزق ذراع (ليبرا) اليسرى فسقطت فأسه الأخرى.

حلق (باسم) بجناحيه ليطير في حركةٍ دائرية حول (ليبرا) والطاقة تتدفق منه خالقًا إعصارًا عاتيًا من النور الأبيض أخذ يتســـع وكل ما يلمســـه من وحوش الزودياك يتحول إلى رماد وهم يصرخون في ألمٍ وفزع، أما الوحش الأكبر (ليبرا) فأخذ يزأر متألمًا بصوتٍ مخيفٍ هادر ارتجت له الإســـكندرية كلها، كألف روحٍ تُعَذّب، ثم انفجر متلاشيًا في غبارٍ كثيف، وفي اللحظة ذاتها تفتت الحجر الأحمر الياقوتي واختفى الباب الذي جاء منه (ليبرا).

شاهد (ســـليم) هذا المشهد في ذهولٍ ورعب، غير مصدق لما يراه بعينيه، ثم أفاق من رعبه ودهشته وحاول الهرب، لكن (باسم) لحق به وقال له بصوتٍ عميق كأنه يأتي من أغوار الكون:

"لم تدفع ثمن جرائمك بعد."

تجمد الدم في عروق (سليم) وهو ينظر بخوفٍ ناحية (باسم) كأنه يراه للمرة الأولى في حياته، ورفع يديه أمام وجهه ليحمي نفسه من المصير المجهول الذي يحمله له هذا الخيميائي، فمد (باسم) يده أمامه ليمسك وجه (سليم) بكفه، فصرخ كأنه يحترق في ألف جحيم، قبل أن يتحول جسده إلى رماد، ويتناثر في الهواء.

انقشع الظلام، واختفت الشموس والنجوم والسديم، وعاد كل شيءٍ لطبيعته، بينما الخيميائيون يقبضون على من تبقى حيًّا من النيكرومانسر.

التفت (باسم) ليرى المشهد من حوله وقد اختفى النور الأبيض من عينيه، لقد انتهى الكابوس أخيرًا، وببطءٍ تلاشى الجناحان من وراء ظهره وهو يغمض عينيه ويفقد الوعي ويسقط ببطءٍ ناحية الأرض.

الخاتمة

على سـريره بإحدى المستشفيات الخاصة، جلس (باسم) ليتلقى عناية خاصة من ممرضةٍ حسـناء، وأمامه تلفاز يذيع نشره الأخبار، وعلى الشاشة رأى مذيعة تقول:

"هجوم إرهابي جديد في الإسـكندرية بعد عدة أيام من الحادث الإرهابي بالمنيا، وقد طال الدمار الكثير من معالم الإسكندرية، وتدمرت مكتبة الإسـكندرية بالكامل، والجدير بالذكر أن الإرهابيين استخدموا غازات هلوسة، جعلت الناجين من هذا الهجوم يقرون برؤيتهم لوحوشٍ وشياطين ومخلوقاتٍ غريبة؛ لذا يخضع كل من نجا الآن لتأهيلٍ نفسيٍّ خاص بعد ما شاهده منذ فزعٍ في ذلك اليوم الأسود."

أغلق (باسـم) التلفاز؛ فقـد أدرك أن هناك مـن يحاول حجب الحقيقة عن عيون العامة كالعادة، لم يعرف هل هم النيكرومانسر أم الخيميائيون هذه المرة، لكنه لم يبالِ، أغمض عينيه محاولًا إراحة رأسه التي تزاحمت فيها الأفكار، وعاد بذاكرته إلى هذا اليوم الذي ذهب فيه إلى الأشمونين، وشعر أن هذا اليوم قد مر عليه دهور، لقد تغيرت أشياء

كثيرة في هذا العام منذ ذلك الحيـــن، منها رؤيته للكون ذاته، ما زال أحيانًا يشعر أن هذا حلم طويل سينتهي في أي لحظة.

وفجأة فتح عينيه على صوت طرقاتٍ رقيقه، ودلفت (مارية) ومعها (ريتشارد) إلى غرفته وهي تقول:

"يبدو أنك قد اعتدت على الراحة، أيها الكسول."

ثم وضعت بعض الورود بجوار سريره بينما قال (ريتشارد):

"اتركيه فهو يحتاج بعض الراحة بعد كل ما مر به."

ثم نظر ناحية (باسم) مبتسمًا، وهو يقول:

"كما أن أمامه رحلة إلى اليونان، أليس كذلك؟"

فمد (باسم) يده إلى السلسلة الفضية ذات الجناحين المعلقة حول عنقه ليتلمسها بأصابعه، ثم ابتسم بدوره وقال:

"بالتأكيد يا صديقي."

(تمت بحمد الله)

التعريف بالكاتب

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. هو مؤلف وناقد ومترجم، متخصص في أدب الفانتازيا والخيال العلمي، وقصص الأطفال واليافعين، له عدة مقالات أدبية ونقدية على المواقع العربية، وعددًا من قصص الأطفال المنشورة في مجلة فارس المصرية.

له روايتان منشورتان في مصر بعنوان "ريم" وهي من أدب الخيال الغريب و"ملاذ: مدينة البعث" من أدب ما بعد الكارثة الذي يعد فرعًا من الخيال العلمي، ورواية "الشتاء الأسود" في الأردن عن دار آمنة للنشر والتوزيع، كما نشر له قصة الأطفال "الأرنب الشجاع" عن دار أصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي.

نُشر له الترجمات العربية الأولى للأعمال التالية: رواية "الإله العظيم بان" للكاتب الويلزي آرثر ماكين، ورواية "الويندیجو" للكاتب البريطاني ألجرنون بلاكوود، وقصة الخيميائي لهوارد فيليبس لافكرافت.

كما ترجم رواية "النجم الأسود" من أدب الخيال العلمي لمنصة ستوري تيل للكتب الصوتية.

ســـاهم أيضًا بترجمة عددًا من الروايات المصورة، فشـــارك مع مجموعة كلمات للنشـــر بالشـــارقة بترجمة عدة كتب كوميكس وهي "بطل الظل" و"اسم المستخدم إيڤي" و"القلب والعقل" و "خربشات ســـارة"، بالإضافة لترجمة رواية "التنين الأخير" التي نشـــرت على موقعيّ عرب كوميكس وبوابة الكوميكس في مصر.

الموقع الرسمي للكاتب:

http://ahmedmahdi.net

البرديات الإغريقية

مبعوث مورفيوس

اكتشاف أطلال مدينة فرعونية قديمة يؤدي إلى كشف أثري فريد من نوعه، تتكشف على إثره أسرار الماضي والحاضر، ليجد باسم نفسه يتحول من صحفي يغطي كشفًا جديدًا، إلى شخص عالق في صراع بين جماعات سرية قديمة، وآلهة فرعونية وإغريقية، وعوالم سحرية خفية.

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري مواليد محافظة أسيوط سنة ١٩٩١، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية جامعة القاهرة. مؤلف وناقد ومترجم، متخصص في الفانتازيا والخيال العلمي وأدب الطفل، نشر له ثلاث روايات: "ريم" و"ملاذ: مدينة البعث" و"الشتاء الأسود" وقصة أطفال بعنوان "الأرنب الشجاع" عن دار أصالة بلبنان، نشر له ترجمات الكتب التالية: "الإله العظيم بان" و"الويندیجو" و"آلهة بيجانا"، كما شارك بعدد من قصص الأطفال في مجلة فارس المصرية، وله عدة مقالات أدبية ونقدية على عديد من المواقع العربية.

ساحر الكتب

تصميم الغلاف
Khalid El Sherif

جميع حقوق الطبع للناشر